تِشرينٌ آخر

رواية

منى عبد القادر

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر

اسم العمل: تشرين آخر

الكاتبة: منى عبد القادر

نوع العمل: رواية

رقم الإيداع: 23282/2016

الترقيم الدولي:

ISBN 978-977-85325-8- 6

تصميم الغلاف/ علي الدالي

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 00201065534541

00201208868826 - 00201150999344

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر

الإهداءُ:

إلى سلام وأمجد، مرآتا نفسي الصادقتان دائماً.

إلى العربي، صاحبُ الفكرِ الناضج، واهب النور.

وإلى الأرواحِ المعذبةِ داخلَ أجسادٍ غريبةٍ عنها،

الجسدُ قيد، فروا إلى الله، فالله هو المحبة وهو الحرية والسلام.

انزعوا الأغلال وحرروا أرواحكم.

منى عبد القادر

لماذا نجوتُ؟

ومشيت مبتعداً عن الموتِ الذي جاءَ من أجلكَ؟ كاملاً جاء، ولم تَكُن مستعداً، فتخطاك إلى الآخرين.

مستعدونَ، متأنقون، لليدِ التي تأخذُ الأنفاسَ إلى آخرِها، للبهجةِ، أن ينتهي هذا الوراءَ بكل ما فيه من فداحة.

لا أمامي سوى الذي عِشتُهُ.

لا ورائي سوى الذي عشتُهُ.

من المحزنِ أننا عالقونَ في الوقتِ عصافيرُ في القفص،

وخلفَ هذه الستائرَ البيضاء، يوجدُ السهل، وأشجارَ الخوخِ... توجدين!

ويوجدُ البحرُ ورائحةُ الموجِ وهو يتكسرُ على الشاطئِ الصخري.

أنْ نَموتَ حَيثُ ولدنا، تلكَ هي المأساة.

كانت خُطواتنا تكبُر، وكنّا نُريد أن نذهبَ أبعدَ من الأفقِ.

اكتملت الخطواتُ، وما زِلنا نُفنيها في ذاتِ الدروب. وتنقص من أعمارنا، الأيّامُ التي لا نخرجُ فيها من الغرف، الكلماتُ التي لا نقولها، الضحكاتُ التي لا تخرج مدويةً كالرصاص، الدموعُ التي تختنقُ في المحجرين والمشاعر التي تركناها تجفَّ على الشفاه اليابسة.

أحمد دراغمة.

قَبلَ أنْ تُنهي سارة ورَقتها الأخيرة التي ستكتبها بعد الحادثة، ستدخل عمتها إلى غرفتها حاملةً بينَ يديها فنجان القهوة، تبتسمُ لها سارة بإيماءةٍ واهنةٍ، تفهم من خلالها العمة أن عليها المغادرة، لكنَّ العمة تصرّ على البقاء، وكعادتها تُلحّ بالسؤال عمّا جرى في الليلةِ السابقة، ولأن سارة لا تبوح إلا للورق، ستفتعلُ الحديثَ مع عمتها، وستراودُ الكلمات المصطنعة عن نفسها لتخرج، وستنهي الكتابة على أن تكملها فيما بعد، تحت عنوان:

في "بوسطن" أتسول انتماء وهوية

"البارحة عندَ العاشرةِ ليلاً، خرجتُ على غير هدىً إلى شوارع "بوسطن" متسكعة. كان الليلُ بارداً وثقيلاً وكانت السماءُ صافيةً والأضواءُ ساطعةٌ. في ليالي تشرين الباردة تنامُ المدينةُ باكراً، تغرقُ في الهدوء، خاصةً في أيامِ الأسبوع المليئة بالعمل، كذلكَ كانَ البارحة، كانت الشوارعُ مقفرةً من المارَّة، إلا من بعض الثَّملين العائدين إلى منازلهم.

لم يكن في المكانِ ما يعكِّرُ صفوي، مشيتُ عكسَ اتِّجاهِ المركبات التي كانت تأتي بهدوء على فتراتٍ متباعدة.

قبلَ ذلك، عندما عزمتُ على الخروج، حاولت عمتي منعي بكلِّ ما لديها من وسائلِ الردعِ والإقناع، ثرثرتْ كثيراً عن الوقتِ المتأخر وعن احتمال مصادفةِ سكارى وقطَّاعِ طُرق، لكني لم ألتفت لكلامها، لفتُّ نظرَها أننا في "بوسطن" وخرجت. كانَ لا بُدَّ من مغادرةِ المنزل، فقد كنتُ أختنق، وبحاجةٍ ماسةٍ إلى جرعةٍ من الأكسجين تُعينني على التنفس.

لوهلةٍ، شـ عرتُ بجـزءٍ منـي يحتضرـ وتـدريجياً بـدأتْ أعضـائي تتعـثر بالحيـاة وتسقطُ متجهةً نحوَ دروبِ الموت. نعم، ذلك الموتُ الذي كنتُ أخافهُ، قد بـدأ يتسـلل إلى جسدي، إلى روحي، إلى كلِّ شيءٍ، ليُفقِدَهُ معناه وقيمته.

مشيتُ متجاوزةً المجمعاتِ السكنيةِ، دونَ قلقٍ أو خوفٍ من سُكونِ الليلِ.

الغريبُ هو علاقتي العدائيّة بالليل والتي تبـدلت في الآونـةِ الأخـيرةِ إلى علاقـةٍ حميمةٍ. في الماضي القريب، كنت أخافُ الليلَ لدرجـةِ الوحشـةِ، الليـلُ يُـذكرني بـالموت، والمـوتُ والفقـدُ هاجسـاي الـدائمان. ظلمـةُ الليـل تُـذكرني بالحِـداد، كلـمّا زاد سـواده وسكونه، أشـعرُ بـالموتِ يقـترب. لكـن البارحـة كـان الأمـرُ مختلفـاً، فقـد كنـتُ أمشيـ مطمئنةً، أستنشقُ الهواءَ الرطبَ المحمَّلُ بالغربةِ وأستفيء بظلالِ الوحدة. في الواقـع لم أكن وحيدةً تماماً، فمنذ توددي لليـل، وهـو يرافقنـي بصـمت، يَسـمعني، ويُنصِـتُ لي، فليس ثمَّة أ فضلُ من الليل صديقٌ صامتٌ. وليلُ "بوسطن" كانَ صامتاً وهادئاً ومضيئاً.

البارحةُ في "بوسطن"، وبعدَ مضي أربعةَ أشهرٍ على مغادرتي لـبلادي، أدركـتُ في وقتٍ متأخرٍ أني كنت في وطني غريبة. جاءني هـذا الإحسـاسُ العميـقُ المـليءُ بالحسرـةِ تجاهَ وطنٍ مُغَيّبٍ، تلاهُ إحساسٌ مفجعٌ بعدم الانتماء إلى أيِّ شيء باغتني وللمرةِ الأولى في حياتي. كنتُ أتساءل إن كان ثمَّةَ ما أنتمي إليه اليوم هنا في بوسـطن، وإلى مـا كنـتُ أنتمي إليه البارحة هناك في وطني؟. إن حاجتي للارتباط بشيء اليوم والتعلق فيه هي حاجةٌ ملحةٌ تفوق كلّ التصورات.

قبل رحيله، قال لي جمال أني لستُ من الأشخاصِ الذينَ يُحسنونَ العـيشَ دونَ أن يرتبطوا بشيء، وأنَّ عـليّ أن أبحـثَ عـن فكـرةٍ أنتمـي إليهـا قبـلَ أن يجرفنـي تيـارُ الضياع. قال لي بوضوح: "أنتِ لا تستطيعين العيش دون أن تمنحي ولاءك لشيء، حاولي

سارة، ولا تنظري إلى الوراء، الماضي قاتلٌ مُباغتٌ، يستدرجكِ إلى الخلف ثم يفتكُ بك، فوّتي هذه الفرصة عليه، أرجوك. ابدئي من جديد، جِدي شيئا ترتبطين به ارتباطاً حقيقياً يعطيكِ هو بدورهِ الأمان الذي يجب. لديك عاطفة جائعة، غذيها، العاطفة في سلّم ماسلو تأتي في الدرجة الثالثة من الحاجات الأساسية للإنسان، لا تتهاوني بالأمر، قد يقودك الأمر إلى الاكتئاب، والعزلة الاجتماعية. وبما أن خيط الوطنية والحب قد قُطع، فعليك البحث مجدداً عن انتماء آخر، أفضِّل أن يكون حقيقيا أكثر، شاملا أكثر، حقيقيا لا تنسيّ سارة ".

استطاعَ جمال أن يفهم ما لم أستطع أنا فهمه عن نفسي، كان على حق، أنا لا أستطيع مواصلة العيشِ دون انتماء، هكذا نشأت، لا بد أن أجدَ رابطاً يربطني بهذه الحياة، وحاجتي إلى الانتماء حاجةٌ نفسيةٌ ضرورية لإتمام مشوار البقاء المؤقت.

البارحةُ، كنتُ أشعرُ أني تائهة. فأنا لا أملكُ زوجاً، أرضاً، منزلاً، ولا وطناً. وأفتش عن انتماءٍ وولاءٍ لشيءٍ قد لا أجدهُ. كنتُ أثناءَ سيري على الرصيفِ الخالي أبحثُ داخلَ نفسي عن إخلاصٍ أمنحهُ لأيِّ شيءٍ، لشخصٍ، لحجارةٍ، لمكانٍ، لصورةٍ، أو لفكرةٍ. وفي كلّ مرةٍ كانت تعودُ إليّ محاولاتُ البحثِ مليئة بالخواء.

أنا اليوم أتحدثُ العربيةَ والانجليزيةَ بطلاقةٍ، و ألِمُّ بمفرداتٍ من عدةِ لغاتٍ لكني أنا الآن هنا بلا هوية. اليومُ أنا في "بوسطن" صرتُ أتسولُ وطناً وانتماءً وهويةً، وها هي قدمي تطأ أرضاً بديلةً، لكنّ شعوري تجاهَ الوطنِ جافاً وبارداً. لا يأخذني الحنينُ إليهِ، ولا تأتيني زفراتُ الشوقِ إلى أيٍّ من أجزاءهِ. في الواقع غربتي كانت تتزايدُ كلما حاولت فقط، التفكيرَ فيه.

كانت نفسي قد حدَّثتني بخلع حجابي ومجالسةِ الثملين العابرين إلى بيوتهم، فأتنكر لديني بعضاً من الوقت، لكن كان هناك من يقف دائما أمام تمردي وعصياني. الغريبُ أني أؤدي فرائضي وأفعلُ ما يُمليه عليّ قلبي من بِرَ، إلَّا أنني اليوم فقدتُ إيماني.

البارحةُ كنتُ مبعثرةً، فاقدةً لاتزاني، مُكبلةً، كأني أقف على جسرٍ، أتأرجحُ يمينا وشمالاً ولا أسقط. أفكر، أتأمل، أُلملم شتات أفكاري وأرتب نفسي تصاعديا، وعند كلّ درجة كنت أتوقف لأستعيد سنوات عمري عبر سلّم وهمي، وكلما ارتفعتُ درجةً إلى أعلى، كان السلم يهوي نزولا إلى أسفل.

أنا أعلم أن لي قلبا هشاً كقطعةِ بسكويتٍ رقيقةٍ في يد طفلٍ يحبو، ما إن يستدير حتى يسحقها فُتاتا تحت أصابعه، لكني كنتُ قد قررتُ في مساء البارحة البارد، أن أجلب له العزيمة كما جلبتُ له الصداقة من ذي قبل مع الليل. أن أمنحهُ بعض القوةِ كي يغدو صلباً، فالقوة قرار كما هو الضعف قد يكون أحيانا اختيار. لذا كان لا بد من قرارٍ في ساعةٍ كنت أحس كأنها ساعة الفصل.

أينتمي الإنسان إلى فكرة، طيف، روح، مكان، أو أرض؟.

أيأخذه الحنين إلى شيء يجهله؟.

لكن أيَّ انتماءِ اليوم يسحبني عنوة بولاءِ سحري إلى نهايتي؟ أتراها الرغبة في العودة إلى الأرض من حيث أتيت؟ !.

هل يستدرجني سحرُ الترابِ فأعود إليه بملء إرادتي؟.

أيَّ قوةٍ أردتها لقلبي اليوم فانقلبت إلى تمردٍ سيقودني إلى آخرتي؟.

صباحُ البارحة، كنت على موعدٍ مع الطبيبة. في الآونةِ الأخيرةِ صرتُ أعاني من اضطرابٍ هرموني وصرتُ أشعرُ بألمٍ في ظهري وأسفل بطني. عندما قابلتها، أجهشتُ بالبكاء، كنتُ كطفلةٍ تائهةٍ، فقدت والدها، ما إن رأيت الطبيبة حتى شعرتُ بالأمان. كنت بحاجةٍ للتحدث إلى أحدهم، دون حواجزٍ، دون قيود.

سألتني بكل لطف:" ما الأمر عزيزتي، يمكنك أن تثقي بي أنا هنا لمساعدتك."

بقيتُ على تلكَ الحال دقائق، لا أعلمُ كيفَ أوقفُ ذلك النزف. بعد أن هدأت، اعتذرتُ منها بشدة، وقلتُ لها أني بحاجةٍ إلى التحدثِ أكثر من أي شيء أخر.

رحبت الطبيبة بذلك وقالت:" بكل سرور عزيزتي، هيا أخبريني ما الأمر؟".

قلت لها إنني أعاني من شيءٍ يشبهُ الوسواس القهري، أؤنب نفسي وأعاتبها في كلّ شيء، أقفُ عندَ كلّ تفصيلة، حتى الأشياء الصغيرة التافهة، أظلُّ أحدِّثُ نفسي لِمَاذا فعلتُ ولِمَاذا لم أفعل، قلتُ لها أن الأمرَ في تزايد، حدث وأن كنت أنزل من على السلم في الجامعة، وجاءني ذلك الإحساس بأن عليّ أن أرمي نفسي- صرت أمرّ من جانبِ الأماكن المرتفعة، الأدراج، بسرعة كي لا تحدثني نفسي بشيء من ذلك القبيل.

كانت الطبيبةُ تُصغي إلى ما أقوله لها باهتمام، لم تسألني عن أي شيء ولم تقاطعني، عندما انتهيت، قالت أني سأكون بخير، فقط، علي أن أجيب على بعض الأسئلة في اختبارٍ قصير، وستتابع هي بدورها حالتي.

قبل الأمس، لم أكُ أدرك صعوبة أن يحيا الفرد في أرضٍ ليست أرضَهُ، ومع قومٍ ليسوا على مِلته ولا يتحدثونَ بلغته، ومع ذلك، تربطه بهم علاقاتٌ إنسانيةٌ هي أسمى وأرفع من كلّ لغات العالم ومن كلّ أراضيه. لم أكن أتفهم ضياع جمال وتيهه بين

المذاهب والحضارات والأديان. وتمسّكه في ذاتِ الوقت بشيء أوسع وأشمل من كلّ المفاهيم.

كيف للإنسانِ أن ينتمي إلى نفسه وعقله فقط؟ أن يحيا فقط من أجل إسعادها وكيف لغيره القدرة على أن يهبَ نفسهُ وعقلهُ للبشريةِ جمعاء دون استثناء؟ .

البارحة وأنا أمشي في شوارعِ "بوسطن" كنتُ مجردةً من كلّ المفاهيم إلا من أسئلةٍ كانت تُلّح علي بالإجابة، لم أكن أريد لهويتي أن تذوب، ولا أريد أن أتفاخر بأصلٍ أو جنسيةٍ أو دين. وكلا المطلبين لا يمكن أن يجتمعا. قال لي جمال: " إن مجرد التفاخر بالهوية يعني أنك تقومين بنشرِ الكراهيةِ والعنف والحقد. يعني أن تُصبحي عنيفة"، والبارحة كنت أشعر أني كذلك، وعنفي هذا كان ينصب مباشرة نحو نفسي."

***

مُباعة ..

هكذا صرخت سارة ، دون تردد، عندما سمعت السؤالَ لأولِ مرة. تفوهت بالكلمة، دون رغبةٍ منها في التفكير، شيءٌ ما دفعها لعدم قولِ الحقيقةِ والإجابة سريعا: "مُباعة".

كان إدراك سارة للذكرى التي يُخلِّفها تشرين وراءه من كلّ عام، أشبه ما يكون بإسفين غضب حاد، يقسَم السنة إلى قسمين: تشرين وغير تشرين. فتشرينُ هو بداية الحياة، والبداياتُ قد لا تُشرق، إن لم تكن شمسُ تشرين حليفتها!. في تشرين تستقبل الأرحامُ أجنتها، كما تفعل الأرضُ كلّ عام، عندما تستقبل بحبٍ، حباتَ المطرِ، فتحتضنها بشوقِ الفقيرِ الجائعِ إلى قوتِ يومه. في تشرين تتعرى الأرض وتتهيأ لانغماس النُطَف في أحشائها، فتنمو النُطَفَ وتنضُج أو تختنق بعد أن يدفنها المطر عميقا. فتشرين كان يعني لسارة البداية دائما، ما لم يكن للقدرِ مشيئة أخرى.

وسارة بهواجسها، كانت دائمة الخوفِ من أن يحول القدر بين البداية وولادتها، أن يُقدَّر للبدايةِ الإجهاضَ قبل أن ترى النور، أن تخرج شمسُ تشرين مُعتِمة، وألا تحظى الحياة بشعاعها المتوهج. ففي كلّ تشرين، كانت سارة تَعُدُ العُدَّة والعتاد للمواجهة، تتوشحُ السواد وتتهيأ لما هو آت، والذي قد يكون خارجا عن الأجندةِ السنوية.

كان تشرين سارة مُتبدل، تلتصق بهِ صفةُ الغدرِ كصفةِ تشبيهيه، ولأن تشرين لا يليق به إلا ذلك، فقد ارتأت سارة أن تبقى مستعدة لكلِّ صفعةٍ قد تُوجَّه إليها في تشرين هذا العام . فمنذ ثلاثة أعوام يتناوب تشرين على مفاجأتها مما جعل منه شهراً مريباً بالنسبة إليها، وخندقاً أسوداً ضحلاً يميلُ إلى الإتساعِ بداخلها يوماً بعد يوم، وهذا ما حدا بها إلى الإجابة سريعا : "مُباعة".

أجابت سارة على سؤالِ سيدةٍ، جاءت لحضور مهرجان الفيلم الفلسطيني، عندما استوقفتها لوحةٌ معلقةٌ على أحد الجدران، كانت قد رُسمت بعناية، سُطرت فيها الأرض بألوان قاتمة، وبُعثرت فيها الأوراق الخريفية كأنها سقطت لتوِّها من فوق أغصان عرائش العنب الممتدة أمام بيتها، امتزج فيها الحزن والبقاء، واختلط في أعماقها الماضي والحاضر معا، وتوحدا في بوتقةِ الشرودِ واليقظة.

فمنذ التحاق سارة بجامعة بوسطن، وتعرفها على الفعاليات التي تُقيمها الجاليات العربية هناك، عزمت على أن تقدم ما في وسعها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من صورة الأمة الإسلامية والعربية التي تبدو مهزومة أمام بلاد ما وراء المحيط. كان رِيعٌ الفعاليات الفنية والثقافية يعود إلى أسر المنكوبين العرب في أوطانهم. وقبل أن تفشل سارة في رسم لوحةٍ تُعنى بالتراثِ الفلسطيني، كانت قد قررت، خوض تجربة المشاركة

في مهرجان الفيلم الفلسطيني الذي يُقام في تشرين من كلّ عام في متحف الفنون الجميلة في بوسطن.

وقبل بدء المهرجان بأيام، كانت سارة تجلس على ضفاف بحيرة "جامايكا بوند" في مدينة بوسطن، تتأمل الماء الراكد، وتحدّق بأشجار السنديان التي بدأت بالتحول إلى اللون الأحمر مع بداية الخريف.

كان للأشجار وانعكاس ألوانها على الماء منظراً غاية في الروعة، تجتمع فيه الصور، مشكِّلةً مزيجا أشبه بحلمٍ جميل. كانت سارة تحاولُ نقل الصور التي جذبتها ذاكرتها عبر الريشةِ والألوان خاصتها إلى لوحةٍ كرتونية منتصبة على دعامتين مصنوعتين من الخشب.

كانت تذهب إلى البحيرة وقت الظهيرة حيثُ الشمس في منتصف السماء وحيث أشعتها تسقط مباشرة فوق الماء، فتنثر ما تستطيع من دفء فوق كلّ شيء. فقبل ذلك، يكون البردُ في أنحاء "بوسطن" قارصاً، وكذلك الأمر أيضاً عندما تبدأ الشمسُ بالهروبِ إلى مخدعها، أحسنت سارة بذلك اختيارَ الوقتِ المناسب ولكنَّها أخفقت في اختيار المكان الذي سيتسنى لها من خلاله مداعبة الطبيعة وخيالها بالألوان. فبينما كانت تُحدِّق بالأوراق المتناثرة على طول الممشى، عكَّر صفوها بعض المارة الذين جاءوا للتنزه برفقة أحد كلابهم، ورغم كلّ محاولاتها اليائسة لاختيار مكانٍ لا يشوبه نفسٌ آدميَ ولا رائحة حيوانية، إلا أن خبرتها غير الوافرة بهذه المدينة كانت عائقا أمام أمنياتها تلك.

فغالبا ما يلجأ سكان "بوسطن" إلى مثل هذه البحيرات في مثل هذا الوقت من السنة، مودِّعين قبل أن يكونوا متنزهين. فالخريف هو آخر الأيام التي يتجرأ فيها

المتنزهون على خوض مضمار التنزه على ضفاف البحيرات، ذلك لأن شتاءَ "بوسطن" بارد جداً، ويأتي مبكراً حاملاً معه درجاتِ حرارةِ دون الصفر المئوي.

كانت سارة قد نقلت ما تحتاجه من عدّة الرسم إلى سيارة عمتها التي تستخدمها أثنا ء تنقلاتها، باحثة عن مكان يُضفي على قلبها الإلهام. وفي الواقع، أن سارة لا تعرف غير الطبيعة مكاناً لذلك.

فقد نشأت في قريةِ خضراء وسط طبيعة ساحرة. لكن طبائع سارة الساكنة التي تميل إلى الصمت والوحدة والتأمل، قد حجّمت من فضولها نحو اكتشاف الأماكن، خاصة المزدحمة منها.كانت سارة تمتنع عن الخروج في الرحلات الاستطلاعية التي تنظمها بعض العائلات الصديقة هناك، وتكتفي بما تتعرف عليه بفعل مجهودها الشخصي، أو بحكم بعض العلاقات الاجتماعية التي كانت تنغمس فيها رغما عنها.

سارة كانت تُجيد الرسم، والكتابة، تمارسهما بحب، لذلك قررت المحاولة لفعل شيء يعينها على المشاركة في المهرجان، لكنها وبعد عناء، لم يُسعفها الوقت لإتمام اللوحة . كانت قد بذلت مجهوداً كافياً، لكنَّ الفترة كانت محدودة للإنجاز، واكتفت بأن تكون من فريق المتطوعين المشرفين على اللوحات في المهرجان.

و في صباح يوم تشريني غائم، نفضت سارة أغطية سريرها ، ونهضت متثاقلة ، قبل ذلك عند الفجر، أحست سارة بمسلاّت الوهن تنبش مفاصلها، تثاقلت عن صلاة الفجر. ورغم كلّ الضجيج الذي افتعلته عمتها، إلا أن سارة امتنعت عن الاستجابة لناقوس الصلاة، وبقيت مختبئة تحت الأغطية الدافئة ، تجاهلت الأصوات والافتعال والنداءات، وعند العاشرة، نهضت بحزن بعد أن أدركتها أشعةُ الشمس وهي نائمة والذي ينتهي مع نورِها وقتُ الصلاة.

قامت وتوضأت لأداء الصلاةِ بنية الفائت، واختارت ملابسها من غرفة الملابس التي عادة ما تكون مُلحقا بغرفة النوم، وهي غرفةٌ صغيرةٌ تجمع بين صفوف من العلّاقات الخشبية موزعة بشكل أفقي من اليمين إلى أقصى الشمال. تحتوي الغرفة على مرآةٍ مثبتة بطول الحائط بعرض نصفِ مترٍ تقريبا. ورفوفٍ خشبيةٍ صغيرةٍ على امتداد المساحة الفاصلة بين الجدار والمرآة.

ارتدت سارة ثيابها على عجل، قميصا طويلا أسودا، وسروالا من الجينز الأزرق الغامق، ثم أسدلت منديلا ورديا فوق رأسها وعنقها، وثبتته بدبابيس مدببة على طول محيط الرأس ثم جلست أمام مكتبها تدون:

صراعُ النفسِ هو أشدُّ أنواعِ الصراعِ وأكثرُها فتكا بالعقل.

"وددت مساعدتهم، لكني فشلت.

لم أبذل الجهد الكافي، أنا أكيدة من ذلك. لو كان في أعماقي الانتماء الحقيقي لأمتي لكنت فعلت كلّ ما في وسعي لمساعدتهم، لكني أخفقت.

أنا الآن لا أملك تلك الرغبة في فعلِ أي شيء حيال بلادي، كما السابق. لست تواقة إلى أي شيء. ما يُزعجني هو فرط الإحساس بالذنب الذي يعتريني تجاه كلّ أفعالي. منذ الصباح، وأ نا في صراعٍ مع نفسي. صراع الرغبة بين ما أحبّ وما أريد، وما يتوجب علي فعله.

أحيانا، أحِسُّ بكتلةٍ مُتقدةٍ من الحماس تجتاحني، وتجعلني قوية لدرجةٍ أتفوق فيها على نفسي وأنهي معها سلمياً ذلك الصراع، راضية ومقتنعة. لكن جذوة حماسي بدأت تنطفئ.

يمكنني تخيّل الأمر على أنه نار وانتهى وقودها وهي الآن في طريقها نحو التحول إلى رماد.

بدأ زيت السراج ينضب، وكل يوم لا أموت فيه هو معركة في مواجهة هذا العالم بكل ما فيه من أذى وفداحة.

أشعر الآن بالانطفاء. لا لشيء، فقط لأني الآن لا أعرف ماذا أريد. أنا ذرة رمل في محيطٍ كبيرٍ، ما الفائدة العظيمة التي سأحققها لأمتي إن كنت سأشارك في المهرجان أم لا؟.

رغم ذلك، أنا لن أنسحب من الحرب. سأكمل حتى النهاية، وإن كنت أحس بها حربا خاسرة، فليس مهما. المهم ألا أخرج الآن بهزيمة، وليحدث بعد ذلك ما يحدث."

عندما خرجت سارة من غرفتها، كانت السيدة صفاء عمتها، تجلس أمام طاولة أعدت لشخصين وسط صالة لا تزيد مساحتها عن ثلاثة متر مربعة. كانت غارقة في التفكير، شاردة الفكر.

ألقت سارة عليها تحية الصباح، ولكي لا تتأخر عن الحفل استأذنت سريعا.

أخذت السيدة صفاء ترقب سارة بحذر، ومن فوق فنجان القهوة، لمعت عيناها بالكلمات. ورغم أنها لا تُجيد كتمان الأسرار، إلا أنها استطاعت أن تُمسك بالكلمات.

في الواقع كادت تشي بكل ما يجول في خاطرها لولا أن قطعت سارة حبل أفكارها قائلة: "عمتي... بمَ تفكرين أرى أنك شاردة قليلا؟"

تلعثمت العمة وقالت بعد أن أخذت نفسا عميقا:

"أبدا أبدا يا ابنتي، ليس هناك ما يدعو للقلق".

سارة التي تعرف طبائع عمتها جيدا، لم تصدقها. ودعتها بابتسامة وطبعت على خدّها قبلة ثم خرجت من البيت مسرعة. ركبت سيارتها وانطلقت.

كانت الشوارعُ مبللةً على امتدادِ الشارعِ المحاذي للبحيرة. لاحظت سارة ذلك بعد اجتيازها للفناء المحيط بالمجمع السكني. دفعها رذاذُ المطرِ الهادئ المُتساقط فوق الزجاج إلى فتح نوافذ السيارة لتستمع برائحة التراب المبتل. تغلغلت الرائحة في رئتيها، بعد أن حملت معها أريجاً معطراً برائحةِ الحنين. داعب الهواء الرطب المحمّل برذاذ المطر وجهها فأضاف إلى وجنتيها توردا طبيعياً. التفّت يميناً، كانت الأزمةُ خانقةً جداً. خففت من سرعتها، فأتاح لها ذلك فرصةً أكبر للاستمتاع برائحةِ الأرض العبقة ورائحة الذكريات. كانت تفكر في نظرات عمتها الحذرة. شيءٌ ما حدثها أن ما يُخبئه لها هذا اليومُ الخريفي الماطر سيكون فوق طاقتها.

بعد نصف ساعة، وصلت سارة إلى متحف الفنون الجميلة، أحد أكبر المتاحف في أمريكا. ظهر بكامل وقاره، ولاحت نوافذه الزجاجية الممتدة على طول واجهاته. في الساحة الأمامية، رأت تمثالا برونزيا لفارس هندي من قبائل الهنود الحمر، كان الفارس يمتطي حصاناً، ويرفع رأسه إلى أعلى، فاردًا ذراعيه مستسلماً، موليّاً وجهه نحو السماء، كأنما يهم بالدعاء.

"ليس هناك إحساسٌ أسوأ من إحساسِ الهزيمةِ والاستسلام".

قالت سارة في نفسها وهي تمر بجانب التمثال بعد أن ركنت السيارة في المكان المخصص. سارة تعرف قصة التمثال جيداً، أثار فضولها ذلك منذ الزيارة الأولى للمتحف. علمت من مواقع الانترنت أن التمثال يدعى"نداءٌ إلى الروح العظمى".

علمت أيضا أن التمثال قد صُمم على يد فنان أمريكي يدعي دالين الذي عاش مع الهنود الحمر، وترعرع بينهم وتأثر لمعاناتهم التي كانوا يلاقونها من المستوطنين البيض. التمثال يجسد القائد سيوكس، قائد إحدى فرق الهنود الحمر بعد أن أعلن استسلامه. صوّرَهُ دالين وكأنه يطلب المساعدة الروحية من قوىً عليا لما حل بمجموعته من هزائم، بعد محاولات اقتلاعهم من أرضهم الأم: أمريكا الشمالية.

" حتى البيض هنا ينتمون إلى لونهم، لا بأس إذن أن ينتمي الكثير في بلادي لقبائلهم وعشائرهم. إنه الانتماء البغيض."...قالت سارة محدثة نفسها.

دخلت سارة عبر المدخل الرئيسي فخَيّم عليها إحساسٌ بالرهبة بدأ بالتزايد أثناء عبورها الممرات المؤدية إلى قاعة المعارض.

كانت اللوحات النادرة والتماثيل الحجرية تملأ القاعات في كلا الجانبين، ويتوسطها طاولات خشبية أنيقة، بينما تدّلت من السقف في إحدى القاعات تحفٌ مضيئة. دخلت سارة إلى إحدى القاعات تتفحص جوانبها، فلاحظت وجود بعض النقوش الأثرية على أحد الجدران، في حين تراصّت توابيت فرعونية مزينة في أرضية القاعة. في المتحف أدراج ملوكية تشبه أدراج الكنائس تنتهي بأقواس وجدارايات منقوشة وملونة. الحقيقة أن سارة شعرت أنها تمشي داخل قصرٍ ملكي يحظى بالحفاوة والمنزلة العالية.

وصلت سارة إلى القاعة المخصصة للمهرجان في الطابق السفلي، والتي زُيِّن مدخلها بالأعلام الفلسطينية، واكتست جُدرانها باللوحاتِ التراثيةِ والمطرزات. كان هناك عددٌ وافرٌ من الزوار من ذوي الأطقم الرسمية وربطات العنق الأنيقة قد بدأوا بالتوافد إلى المكان، وكان صوتُ العودِ يصدح في أرجاء القاعةِ، ينثر ترانيمه المليئة

بالشجن مع أشعار محمود درويش التي تُثير أشجان العرب وتملئهم حنينا للوطن. انتبهت سارة للتشابه بين صوت المُغني وصوت مارسيل خليفة. علا الصوت أكثر فأكثر مُستثيرا مشاعر الفلسطينيين والسوريين والمنتمين لأوطان أُبعِدوا عنها، أكثر من غيرهم ممن جاءوا لحضور الحفل. كان في صوت المُغني عذوبة أعادت سارة إلى أيام فُطِر فيها قلبها. كانت رائحة الخبز العربي تدخل إلى قلبها مع أنفاس المُغني فتُحيي في ذاكرتها صورة الوطن البعيد.

بصوت جهوري متين، كان ينشد:

"أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي،

ولمسة أمي،

وتكبر فيّ الطفولةُ يوما على صدر يوم

وأعشق عمري لأني إذا مت أخجل من دمع أمي"

مع كلمات درويش، شردت سارة ، كان إحساسا بالألم، قد فاجئها ولم تقوَ معه على إخفاء دموعها، ليس لأنها تخجل دمع أمها التي غاب جسدها وتوارى تحت الأرض، ولا لأنها تشتاق قهوتها التي لم تتذوقها أبدا، ولا خبزها الذي لا تتذكر طعمه. بل لأنها تفتقد وطنا عشقته. تفتقد اللمسة الحانية لأم لم تنعم بلمستها كثيرا والأب الذي لم يفارقها وجهه أبدا. تفتقد كلّ شيء يجعل منها إنساناً ذا هوية.

وفجأة وسط ضجيج الحضور والتصفيق الحار، وقفت سارة مُتسمرة في مكانها دون حراك. استدارت ذاكرتها مئة وثمانون درجة ممتطية الزمن، عائدة إلى نقطة الصفر حيث البداية. باغتها تشرين فاسترجعت ماضٍ دُفن مع الذكريات. كان قدر سارة ذكياً جداً وقاسياً. حينها أدركت أن شيئاً ما قد أصابها في العمق، توّجَهُ إحساسها المتعفن بالغربة وحنين قديم إلى وطن بعيد. باغتها تشرين، وشعرت بالهزيمة عندما أبصرت جمال يدخل برفقة عمتها، جامح النفس واثق الخطوة، مبتسما. كان يمشي ببطء، وقد أضفت عليه ملابسه السوداء وربطة عنقه ذات اللون الأحمر وقاراً من نوعٍ خاص. وبحنان عاشق، أمسكت عمتها بذراعه فتأبطها. وصلت إلى سارة رائحة عطره من ماركة "جورجيو أرماني"، ليس لأن رائحة عطره قوية فقط، وإنما لحاسة الشم القوية التي تمتلكها والتي تعطيها قدرة غريبة على تمييز الروائح حتى قبل رؤيتها للأشياء أو الشخوص.

أخذت سارة المفاجأة أثناء حديثها إلى سيدةٍ كانت تبدي إعجابها بإحدى اللوحات التي رُسمت بأقلام الرصاص والتي تمثل الجدار العازل الذي يفصل القدس عن المقدِسيين بمربعات سوداء وبيضاء كوصفٍ "للشماغ" الفلسطيني المعروف. رُسمت فيها شجرة عنب نبتت أمام الجدار، جذورها في أرض المقدِسيين وفرعها في أرض المقدسيين المسلوبة، تسلقت الجدار وتناثرت أوراقها الصفراء التي عبث بها الخريف. كان الجدارُ يفصل الأصل عن الفرع، فيَتيح للصهاينةِ الاستفادة من خيرات بلدِ دنّسته قذارتهم دون تعب.

عندما أفاقت سارة من ذهولها كانت تردد مُباعة للمرة الخامسة، ومع كلّ مرة تُجيبها المرأة بالانجليزية :

" حسنا .. حسنا".

تقدمت سارة نحو الضيفين، ويداها مضمومتان إلى صدرها وكأن ماضي تشرين يلاحقها. تقدمت ببطء ورهبة وقد فاض قلبها بالذكريات.

***

بداية الحكاية في أول تشرين.

قبل ثلاثة أعوام، في قرية أردنية نائية، وفي إحدى صباحات تشرين الثائرة، ظهرت الشمسُ في ساعةٍ متأخرة من النهار، وكان من الممكن أن يستبدَّ بها الحياء فلا تظهر أبدا، وتبقى مختبئة خلف السّحب الرمادية التي عادة ما يكتظ بها سماء الخريف. أفاقت سارة على حلمٍ، رأت نفسها في نزهة، وسط حديقة خضراء امتلأت بأصناف الشجر من كل الألوان. تعرفت سارة على بعضها والبعض الأخر بدا لها غريبا. كان جمال يقطف من كلّ شجرة ثمرة ثم يقوم بتقطيعها داخل وعاء فخاري، ويرتبها بشكل متناسق فيظهر الوعاء بألوان جميلة. بدأ بإطعامها القطعة تلو الأخرى بيديه مبتسما. عندنا فرغ الوعاء، فوجئ بتحولِ الحديقةِ إلى مستنقعٍ للأوراقِ المتساقطةِ التي غطت المكان، تجردت الأشجار من حلتها وبدأ المطر يهطل بغزارة. ارتعدت سارة وبدءا بالركض معا، سقطت سارة بالوحل وظلت تصرخ وتنادي " جمال .. جمال" حتى أغمي عليها. لكن جمال تابع سيره دون أن يأبه لصراخها أو يلتفت للخلف.

عندما أفاقت سارة كانت متعبة والعرق يتصبب من جبينها كطفلٍ خائف. فضَّلت البقاء مُستلقية وظلت تتأمل السقف. أغمضت عينيها، ثم وضعت يديها خلف رأسها منتهزة فرصة عدم ظهور الشمس من مخبأها بعد. استقرت بخيالها نحو الحلم وراحت تعيشه لحظة بلحظة، حتى لحظة غياب جمال خلف الأشجار العارية. تذكرت

أن السماء كانت ملبدة بالغيوم، فنهضت وآثار الحلم لا تزال عالقة بذاكرتها. كان وجهها أصفر وعيناها شاحبتان، ويداها ترتجفان.

صنعت قهوتها واحتستها قرب النافذة كعادتها مع صوت فيروز العذب. حيّتها الشمس على طريقتها، فأرسلت إليها شعاعاً انعكس مباشرة على مكتبها الزجاجي بعد أن اخترق زجاج النافذة، بعث في أوصالها حفنةً من الدفء سرت في جسدها كالوقود.

كعادة الخريف منذ الأزل، تجتمع غيومه وتتكاتف في لحظات وسُرعان ما تتلاشى كأنها لم تكن. وفي آخر جمعة من شهر تشرين بعد أن أكرمت الشمس سارة بأشعتها الذهبية، تنحت ثانية لتترك الكلمة الفصل للغيوم، فتناثرت حبات المطر على نافذتها تاركة وراءها الزجاج نظيفاً ومبللاً.

ثمة أشياء لا تتغير في كنف الطبيعة، لأنّ يد الإنسان لم تمتدّ إليها، مثل الفصول ومواعيد الغرس والحصاد والصلوات المرتبطة بروابطٍ وثيقةٍ بالشمس وحركة الأرض حولها. وهكذا هو تشرين منذ الأزل وعلى هذه البقعة من الأرض، لم تستطع الأيادي الخفية العبث بأوراقه الملونة ولا بقطرات الماء التي تسترق الفينات بين الغيوم لتأخذ فرصتها بالهطول.

ومع أنّ سارة تعرف ذلك جيداً، إلا أن ذلك الصباح التشريني بدا لها مختلفا على غير عادته، فتحت النافذةَ ثم انحنت إلى الأمام لتشتم رائحةَ الأرضِ ورائحة الصيف المنصرم. بدأت أصوات بعض الفلاحين تتعالى وهم يحرثون ويقطفون الزيتون، وآخرون يستعدون للذهاب إلى العمل في المدينة. تاقت روح سارة أكثر فأكثر للرائحة وللأصوات التي تعشقها وتذكّرها دائماً بالحياة.

فتحت أوراقها ودونت تحت عنوان:

لا حياة بدون وطن

" حيثما وُجدت رائحة الأرضِ وُجدت الحياة.

أنا أخاف الفقد، وأكثر فقدٍ أخشاه هو فقد الأرض والوطن. أخاف دائماً من فقد هذه الرائحة التي تتسلل إلى أنفي كرائحةِ المسك، وأخاف من أن تُصَمَّ أذني عن هذا الصوت الذي يتغلغل في مسامعي فأفقد بفقدهما – الرائحةُ والصوت - وطني الذي تباغته المفاجآت دائما.

البارحة حدثت نفسي كثيرا عن استحالة الحياة من دون أرض.

كنت أراقب الفلاحين وأستمع إلى ما يقولون للحياة فأسمع في أصواتهم صوت الحياة وأرى في حزنهم، الوطن.

كنت لا أشهد في عطائهم الإخلاص، لأنهم يعولون الوطنَ بعيونٍ باكيةٍ وبغصةٍ تخنقُ أرواحهم، وبأقدار يرونها قسرية حملتهم إلى العملِ بقسوة. وطني لا يدرّ عليهم الكثير فإمكانياته محدودة. صغير لكنه يتسع للجميع. معطاء إذا ما بُذل الغالي والنفيس من أجله. فالوطن لا يؤثر أحدا إلَّا إذا آثره، ولا يُسعد قلبا بحياة إلا إذا ملأه حبّا وانتماء. وطني هو الأرضُ التي تحتويني والسماء التي تغطيني والهواء الذي أتنفسه. وطني هو دقةُ قلبي وطفلي المدلل الذي أنجبَته روحي، وأبي ذو اللمسة الحانية. أكاد أجزم أن لا حياة من دون وطن، ولا وطن من دون أرض، والأرض تحتاج إلى عطاء، والعطاء لا قيمة له دون إخلاص وانتماء."

كانت سارة لا تزال تجلس تدوِّن في أوراقها، تتأمل الوطن وتفكر في الانتماء حتى شاب تأملاتها ضجيج الأطفال.

أغلقت النافذةَ واتجهت مسرعة نحو الشرفة، تستطلع الأمر.

وكعادة القرويين في كلّ مكان، يأخذهم فضولهم إلى التجمهر في حلقات حبا في الاستطلاع.

ارتفعت أصوات القرويين:

" يا مية أهلا وسهلا".

" يا مية وردة".

سارة سمعت عبارات الترحيب صادرة من الحلقة التي صنعها القرويون والتي لم تكن مفرغة على الإطلاق. تنحى أحدهم عن مقدمة السيارة ليفتح الباب وقبل أن تتمكن سارة من رؤية الزائر، عادوا إلى التجمهر من جديد. لكن حاسّة الشمِّ، خاصتها، قد بتَّت في الأمر، بعد أن وشى العطر بصاحبه. وما هي إلا لحظات حتى نزل جمال من سيارته بخطواتٍ متزنة كأنها تُصافح أوراق الخريف المبعثرة في كلّ مكان. مد يده فالتقط كلّ يد بادرت إليه بالمصافحة. كان وجهه ممتلئا بابتسامةٍ عريضة وكانت عيناه مسكونتان بالفرح. عندما التقت عيناه بعينيَ سارة من وراء كواليس الفضول، نسيـ جمال يده ممدودة ولم ينتبه لذلك إلا بعد موجة ضحكٍ أطلقها أطفالٌ أشقياء.

سارة التي فرحت وانفرجت أساريرها في ذلك الصباح الخريفي الملبد بالغيوم، بدا لها صباحاً ربيعياً متألقاً متأنقاً بقدوم الغائب.

فالخريف بطبعه حزين وينثر حزنه مع أوراق الشجر المتطايرة إلى كلّ مكان. لكن في ذلك الصباح الملبد بالغيوم، لم يكن صباحاً عكراً ولا حزيناً كما في وجوه القرويين وعيونهم وإنما صباحٌ مشرقٌ بابتسامات الحب، لامعٌ بعينين توجهما اللقاء، صباحٌ شاهدٌ على عشقٍ غذّته الأماني وروته دموع الصبر.

في ذلك الصباح الملبد بالغيوم، أقسمت سارة أنه خرج من الأرضِ رائحةٌ أخرى هي مزيج من عطرِه ورائحةُ الحياة. رائحة ابتلعتها سارة بنهم، تفوق الوصف وتثمل لها الأرواح، رائحة هي من عبق الحضارة الموسومة بالنظافة، مُزجاة برائحة جسده العربي المؤَجَج بالغربة ورائحة الأرضِ المبللة.

دخل جمال ووالداه منزل السيدة صفاء، التي كانت بدورها في استقبالهم بالفناء الخارجي. عانقت السيدة صفاء شقيقها بشوق ،دمعت عيناها فرحاً ثم عانقت نجله، قبلته واحتضنته. صافحت زوجته وتبادلن القبل كما اتفق. سارة التي كانت تقف على الشرفة نزلت وطوقت عنق عمها بذراعيها فاحتضنها بدوره بقوةٍ وطبع على وجنتيها قبلات بحب. صافحت زوجته وقبلتها بينما اكتفت بـ"أهلا وسهلا شرفتمونا" وهي تنظر في عيني جمال مبتسمة.

كان كل من سارة و جمال يلجآن إلى أسلوب الجمع تفاديا للقاءات المباشرة، وتجنباً للمواجهة عندما يتعلق الأمر بالحب. خلف صيغة الجمع تختبئ كلماتهما المحمومة بالشوق فيجمعانها لتصير مشتركة مع كثير من الأشياء. وعلى الرغم من الأعوامِ التي مضت يسترقان فيها الكلمات عبر الهاتف، ويختلسان فيها النظرات عبر إجازات جمال القصيرة، إلا أنهما أدركا أنه لابد من نهايةٍ لكل تلك المختلسات والمسروقات.

دخلت العائلةُ منزلَ السيدة صفاء، وتبادلت التحايا والأشواق والتساؤلات عن الحال وأحوال الوطن، ثم جاءت سارة بالقهوة العربية وبقيت واقفة حتى أنهى الجميع فناجينهم.

- آمل أن الرحلة لم تكن شاقة عليكم أخي أبا جمال؟. قالت السيدة صفاء.

- آه يا أختي، الرحلةُ طويلةٌ جداً وشاقة، لكني لا أشعر بمشقتها إلا عندما أضع قدماي على هذه الأرض، هذه البلدُ تُشعرني بالضِّيق والضجر لسببٍ أجهله، أختنقُ كلما بدأت أتنفس هواءها. صدقيني عزيزتي لولا حبي لك ولابنة أخي لا أبرح هذه الأرض ما حييت.

- ولمَ يا أخي كلّ هذه الضغينة؟ أقسم لك أن هذا البلدُ جميل، استمع هل أقول لك شيئا؟

يكفي أن ترابَ هذه الأر ضِ قد احتوى أجساد الغاليين، إني أشتم فيها رائحتهم، والدانا وأخونا أبو سارة رحمهم الله جميعا .

قالت السيدة صفاء الجملة الأخيرة ثم أطلقت تنهيدة عميقة.

– ليست ضغينة أنا أؤكد لك ذلك، لكني لا أؤمن بهذا الكلام الذي تقولين. أنا لا أشتم رائحةً للأرضِ ولا رائحةً للموتى، أنا لا أنكر أني لا أزال وبعد كلّ تلك الأعوامِ أحنُّ إلى أرواحِ كل اللذين ذكرتِهم، وأتمنى أن يعود الزمن فأعود إلى مجالستهم، لكن لا فائدة الآن ولا جدوى من كلّ هذه الأحاديث. لا كلمة بعد كلمة الموت. الموتُ هو الحاجزُ النهائي لما قبله، بعده فقط يُغلق الباب إلى الأبد. ثم قولي لي بربك، أين هو الجمال الذي تتحدثين عنه؟ ها؟

أنا رأيي أن هذه البلد ليس فيها شيء إلا التعب والشقاء. وأنتِ أكثرُ من يعرف ذلك. عِشتِ في "بوسطن" أعواما كثيرة وتعرفين أن الحياة تختلف عن هنا كثيرا.

– أعرف أخي أن الحياة هناك أسهل، لكنها حياة لا روح فيها، لا إحساس ولا عاطفة، بلا أجواء اجتماعية، كلّ شخص هناك يعيش مع نفسه وعائلته فقط، هنا الناس لا تزال بخير ولا تزال قلوبهم عامرة بالودِّ من

أجـل الآخـرين، يقفـون مـع بعضـهم في السرَّاءِ والضرَّاءِ، يفرحـون لفـرح بعضهم ويحزنون لحزنِ الآخرين.

كان الشقيقان يتبادلان الأحاديثَ والمفارقات بينما ينصت جمال ووالدته بغـير اهتمام. أحضرت سارة الشاي مع الكعك ووضعته عـلى طاولـةٍ دائريـةٍ صـغيرةٍ تتوسـط الجلسة.

- ماذا عنكِ عمو، كم بقي لك عن التخـرج؟. قـال السـيد أبـو جـمال موجهـا الحديث لسارة.

كانت الابتسـامة تعلـو وجـه سـارة بحيـاء. جلسـت عـلى المقعـد المقابـل تمامـا لعمهـا واجابت:

- ثلاثة فصول عمو، تستطيع القول سنة ونصف وربما أقل بإذن الله.

- اووووه أميرة عمـو الجميلـة، هـا قـد كـبرتي بسرعة، إذن فلتُنهـي في القريـبِ العاجل أريد أن أفرح بك وبجمال قريبا. عنـدها تسـتطيعين إكـمال دراسـتك العليـا في "بوسطن" أو في أي جامعة أمريكيـة هنـاك. التعلـيم هنـاك أسـهل بكثـير مـن هنـا، لا تعقيدات وأسـئلة فضـائية. أي نعـم هـو مُكلـف، لكـن لا عليـك. دعـي كـلّ شيء وراء ظهرك، ولا تفكري أبداً بمسألة المال، الخير كثير. فقـط ركـزي عـلى التخـرج. التعلـيمُ في أمريكا يعتمد على الفرد ومجهوده، على عطائه، الأبحاث التي يقوم بها، أنا واثـق جـدا أنك ستسعدين هناك.

سارة التي تغير لون وجهها لم ترد، واكتفت بقول:" إن شاء الله، إلى ذلك الحين، تتغير أشياء كثيرة".

- لم أفهم عمو سارة ماذا تقصدين؟ ما الذي سيتغير؟ هل من شيء تودين إخباري به عزيزتي؟ أستطيع أن أفهمك، قولي، أشعر أنك غير مطمئنة لشيء ما.

- أبدا عمو، لا شيء يدعو للقلق، كلّ ما في الأمر أن....

وقبل أن تُكمل سارة حديثها، ألقت امرأةٌ تحيةَ الإسلامِ على الجميع كانت مارة من أمام الحديقة، بادلتها عمتها التحية ودعتها إلى الدخول، اعتذرت المرأة وذهبت في هدوء.

- هل وصلوا داعش إلى هنا؟. سأل أبو جمال ساخراً.

- من .. من تقصد عمو... آآآه تقصد هذه المرأة...هذه أم أسامة إنها امرأة سورية، نزحت إلى هنا مع أطفالها من بلادها بعد مقتل زوجها هناك، لكنها بالطبع ليست داعشية .

- ههه كيف عرفتِ ذلك عمو؟ كيف عرفتِ أنها ليست داعشية ؟ وهذا الذي تُغطي به وجهها ورأسها إلى أخمص قدميها...؟ ههه..يا لقدرتك العجيبة على التحمل أيها البلد. فلسطيني، سوري، داعشي، وغير داعشي.. .

ارتفعت نبرة صوت السيد أبو جمال فتدخلت شقيقته منعا لاحتدام النقاش.

- ما شأننا نحن، داعشية أم غير داعشية، ذهبت المرأةُ في حال سبيلها فلنتركها وشأنها ولتكن ما تكن عليه. دعونا من كلّ هذه الأحاديث فقد اشتقت لكم كثيرا فلا تفسدوا فرحتنا باللقاء.

- لكن عمتي هل تغطية الوجهِ والرأس أصبح سمة داعشية؟. كيف ذلك؟ ومنذ متى؟.

انحنى السيد أبو جمال إلى الأمام، ووضع كفيه متشابكين بين فخديه ثم نظر إلى الأسفل قليلا وعاد ليرفع رأسه نحو سارة وهو ثابت في مقعده.

- اسمعي عزيزتي، تغطية الرأسِ كانت عادة عند العرب قبل الإسلام قديما. كانت النساء تُغطي رؤوسهن ونحورهن من كلّ الأديان على حدِ سواء. هكذا جاء في الأسفار.. أقصد هذا ما جاءت به الديانةُ الإبراهيمية، اليهودية والمسيحية. ثم جاء الإسلامُ وفرضَ الحجابَ على المرأةِ الحرّةِ حتى تُعرف ولا تتأذى. أنتِ تعلمين جيدا أني لا أؤمن بالأديان لأنها تخنقني، تماما مثل هذه البلاد. لا أؤمن إلا بالعلم. العلمُ وحده قادر على أن يصل بك إلى حدود المعرفة التي تُنشدين. لكن هذه لا يتنافى مع كوني أحب الاطلاع على ثقافات الشعوب وعاداتهم. ثم سارة حبيبتي أنا أعلم جيدا أن النِّقابَ والحجاب ليس سمة داعشية أنا قلتها من باب الدعابة. لكنكِ أخذتها على محملِ الجد، لا أعلم لماذا. لكني أؤكد لك رغم تحفظاتي التي أحملها على الإسلام، إلا أن هؤلاء المتطرفين قد شوّهوا الدين، حتى أصبح من الصعبِ التمييز بين المسلم الحق الملتزم والمتطرف الذي الإسلام منه براء.

- لكن عمي....

تدخل جمال مقاطعاً.

- طالما أن غطاء الرأس والوجه هو مصدر شبهة، وطالما أنه من الصعب التمييز بين الفريقين، لما لا يتم إنهاء هذه المهزلة، كما في كثير من الدول التي تمنع الحجاب؟ وفي ذلك إنهاء للتفرقة. أعتقد أن ذلك أفضل.

- ماذا تقول جمال..! إن كانت تعاليم الإسلام لا تمت إليك بصلة هذا شأنك، أما أن تتحول الدولةُ إلى دولةٍ علمانيةٍ، هذا ما لن يرضاه أبناء الوطن.

ثم أنـ ....

- سارة عمو، عزيزتي اللطيفة، هوني عليكِ، الأمر لا يستحق كلّ هذا الجدال، جمال لم يقصد ما قاله، ما قصده جمال أن الدين عندما يتحول إلى أفيون يُتاجَر به، يُصبح الأمانُ مستحيلا، لذلك تلجأ بعض الدول إلى قطع الطريق أمام هؤلاء التجار. مُسلم، مسيحي، بوذي، هذا شأن من أراد ذلك، لكن تنتهي حريته عندما تبدأ حرية الآخرين. هذا كلّ ما في الأمر. فلننهِ هذا الحديث الذي لا ينتهي ولنستمتع بالكعك اللذيذ. آه عمو سارة قولي لي من حضّره أنتِ أم عمتكِ الجميلة؟..

سارة التي كُدِّرت فرحتها، ابتسمت قسرا، ومررت الكعك على الجميع بتثاقل. كانت تعلم جيدا أن الاختلاف شاسع بينها وبين جمال لكن الأبواب لا يُمكن لها الصمود أمام الحب، تُفتح عنوةً على مصراعيها.

بعد أن تناول الجميع الشاي مع الكعك استأذن السيد أبو جمال وعائلته للذهاب إلى منزلهم، قبل أن تؤكد السيدة صفاء أن عشاء الجميع سيكون في منزلها في تلك الليلة، ثم هَمَسَ في أذن شقيقته همساً، هزت على أثره السيدة صفاء رأسها بالقبول.

أبو جمال الأخ الشقيق لوالد سارة: " لا يناسبني هوى الوطن". هذا ما كان يردده على الدوام. هاجر إلى كندا بعد إكمال دراسته الثانوية وعندما أكمل متطلبات البكالوريوس هناك، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليحضِّر لرسالة

الماجستير التي لم يحصل عليها أبدا. تزوج من فتاةٍ أمريكيةٍ مسيحيةٍ من أصولٍ لبنانيةٍ تكبره بعشرة أعوام.

"فللهوية العربية -حتى بعد تخليه عنها- لعنة تطارده". وهذا ما كان يقوله أيضا في كثير من زياراته القصيرة جداً للوطن وعندما لا يجد إجابات على أسئلة القرويين الفضولية التي يطرحونها مستفسرين فيها عن العمل والدراسة والنجاح.

لم يحالفه الحظ في العلم الذي ظلَّ يتجرع مرارته عقداً كاملاً. ولكن حذاقته في ترتيب بعض الأمور كانت سبباً كافياً لتسوية أمور عديدة ومنها افتتاح مطعمٍ له في مدينة "بوسطن" مع أنسبائه اللبنانيين فطرد بذلك لعنة عروبته، كما قال أيضا حينها.

أما جمال، المزيج الأردني اللبناني الأمريكي المسلم المسيحي، فلم يكُ يوماً أيّ واحد منها أبداً. فَقَدَ دينه بين تخبط الأبوين في عالمٍ أخذهما نحو المادة وبعثر عواطفهما وشتّتها في المحيط. فقدَ هويّته بين الأصولِ والجنسيات والوطن المستبعد، وفقدَ لغته، فتاهَ بين العربية ولغات العالم الحديث.

نشأ جما ل وسط عائلةٍ لا يجمعها إلا النزاعات على أشياء محورها المادة. فلم يكن لأبويه متسعا من الوقت ليعبران به إلى برِّ الأمان فيما يخص هويته ودينه. لم يعرف من وطنه سوى اسمه، ومن دينه إلا كلمة تُكتب في جواز سفره. أتمّ في خريف ذلك العام خمسة وعشرين عاماً. وُلد وتتلمذ في أمريكا. درس هندسة البرمجيات وعمل بعد تخرجه بعام واحد بشركة تعمل في نفس المجال. أما ملامح وجهه وجسده فهي مزيج أيضا، فبشرته بيضاء صافية، وعيناه ملونتان بلون الطبيعةِ الخضراء، وشعره بني يميل إلى الصفرة تحت أشعة الشمس، طويل القامة، ذو منكبين عريضين. في عينيه نقاء وفي وجهه ابتسامة تكاد لا تفارقه، وفي نظراته حزن دفين.

تجمعه بسارة ذكريات وحب نما عبر أعوام، وتجمعها به أواصر هوية ولغة يحبها. لم يرَ وطنه ودينه ولغته إلا بالقرب منها. اجتذبها إليه وأسر قلبها، فأصبحت رهينته، وملاذه الأول من أعباء الحياة. سارة لم يكن لديها ما تفقده في قريةٍ نائيةٍ غاب عنها والداها إلا إحساسها العميق تجاه الوطن. لم تكن تخاف إلا من ضعف قد يعتري انتماءها وولاءها لوطن كانت تراه يتضعضع يوما بعد يوم أمام حب كان لها فضاءَ رحباً، وأمام تداعيات عدم الاستقرار.

كان جمال توّاقاً للسمع عندما يتعلق الأمر بأحاديث سارة. كان يطفو معها فوق سماء أخرى فتنقسم نفسه معها إلى نصفين: روح تحلق بعيداً نحو فضاءات واسعة وجسد ثقيل أنهكته الأعباء.

لم يكُ يعبأ بالاختلافات التي كانت تجعل من علاقته بسارة علاقة شبه مستحيلة قبل ذلك الخريف. كانا دائما يجدان مخرجا من كلّ الأزمات، يفتحان كلّ الأبواب الموصدة ويتدفقان مع الحياة فيتغلبا على كلّ ما فيها من عراقيل. كانت كلما أحكمت الحياة حلقاتها حول عنقيهما، لجئا إلى حوار يجمعهما يتوصلان فيه إلى حلول وسطى. كان جمال يستمع إلى كلمات سارة المنقّحة بالفكر، المليئة بالعمق. فتأملاتها لوجه الحياة كانت قد منحتها قدرا كافيا من القُدرة على فهمها بطريقةٍ روحانيةٍ مبسطة. وكان للحب أثره الواضح في جعل جمال يبحث عن نفسه في كتبٍ تحبها سارة. كان يجد ذاته أينما وجدت هي روحها. يبحث عن دينه في قلبها فيملي عليه قلبه البِر كما كانت هي تفعل . كا نا كلما تقدما في سلّم الحياة، يكبر وعيهما فيزدادا نضوجاً يوماً عن يوم. وكانت سارة تزداد بما تعلمته منه من معرفة وتجربة، بينما يزداد جمال قوة بتأملاتها وبنظرتها الثاقبة تجاه الأشياء والمواقف، وكتبها المُهداة إليه مع كلّ زيارة. كانا يتوحدان في دائرة الانسجام، كلاهما يكمل الآخر بتوازن تام بين التجربة والتأملات.

وعلى الرغم من معرفتهما الجيدة بالاختلاف الفكري والديني الذي يميزهما إلا أن هذا الاختلاف بدا لهما سبباً جوهرياً في التناغم الذي أوقعهما في مصيدة الحب قبل ذلك الخريف، وقبل أن تأخذ الأمور فيما بعد منحىً جدياً.

لكن الحديث عن الحجاب في ذلك اليوم خلق فجوةً لم يستطيعا تفاديها. كانت شرخاً في طريقٍ يُوشك أن يبدأ، ومحطة للتفكير طويلاً قبل البدء بالخطوة الأولى.

لم يكونا آسفين على التصعيدِ الذي حدث في حدة النقاش، بل نادمين فيما بعد على لحظات لقاء سُرقت منهما دون أن يجعلا من الحب فقط سيداً لها.

سارة الهادئة الطبع، الغيورة على وطنها ودينها كانت تأخذها العزة بالإثم إذا ما تعلق الأمر بنقاش حولهما. نضجت بهدوء كما تنضج سنابل القمحِ في أيام الربيع الهادئة، وانحنت أمام رائحة الأرض وأذعنت مبكراً لوصايا الموتى. عندما غاب والداها لم يكن لعينيها أن تتفتح إلا على الحب لتُشبع به عاطفة ثُكلت منذ طفولتها. تسوَّرت الأحلام واعتنقت الوطن، واتبعت يقيناً كان يوصلها دائماً إلى ما تريده. ليست سارة فقط من كانت تحتاج إلى الحب، فأكثر فتيات قرية السعادة ينشدنه ويبحثن عنه في كلّ مكان، وإن كنّ يفضلن إيجاده بعيداً عن أصقاع القرية لأنهن يرينها أصقاعاً حزينةً. فالقرية التي تقطنها سارة تقع في أخفض بقاع العالم، ترقد خلف الجبال وسط صخورٍ مغطاة بالرمال، يتخللها وادٍ سحيق. قريتها جميلة خضراء، تشتهر بأشجارِ الزيتون والرمان والمشمش والليمون والبرتقال. لها مدخلان رئيسيان يوصلانها بالمدينة. بعض أبنائها تصّلبت قلوبهم، امتصت الأمّ و اكتنزته حتى أصبح جزءا لا يتجزأ منهم.

في الواقع أنهم استمدوا القسوةَ من صلابةِ الجبالِ التي تحيط بهم. كفوفُ أبناء قرية السعادة، جافة تحكي قصص الشقاء في العمل. أما عيونهم الحزينة فمليئة

بالعجز. وجوههم لا تعرف الابتسامة إلا على عُجالة. لا يزورهم الضحك إلا نادراً، كزائرٍ خفيف الظل لا يأتي إلّا في موسمِ الأعيادِ أو في موسمِ قطف الزيتون، وربما لا يأتي أبداً.

يُسمع للهدوءِ في قرية السعادة صدىً، وللهمس فيها أصواتٌ لا يمكن تمييزها، وفي ذيلِ كل ابتسامةِ أنين.

تُقام أفراحُها بصخبٍ وطقوسٍ مزجاة برائحة البارودِ ورائحة الطعام الذي يُهدر بكثافة. تُنصب فيها بيوت الشعر مُتكئةً على دعامات خشبية، تُصَفُّ فيها المقاعد الحديدية ذات القماش المخملي، وتُزين بالأعلام والأنوار المتعددة الكشافات للإضاءة واستقبال الضيوف.

أتراحُها لا تختلف كثيراً ، ذات الصخب والطقوس وذات رائحة الطعام التي يُستدل عليها من بعيد، وذات الضجيج وبيوت الشعر والمقاعد والكشافات المُضاءة لاستقبال الضيوف. الغريبٌ هو التشابه الحاد بين طقوس مناسبتين أكثر ما يكون بينهما الاختلاف.

لم يذ كر التاريخ لها اسماً سابقاً ولا سبباً حقيقياً لتسميتها بهذا الاسم، ربما كانت لها أقدار أخرى فأخطأتها. والواقع أنها لم تعرف لها أقدار سوى عادات وتقاليد تناقلتها الأجيال دون أي محاولة للتغيير.

القرية صامدةٌ كعجوزٍ هرِمة، تُقاوم الموتَ حتى الرمق الأخير. إطلالتها تحكي قصصاً شاخت عن الماضي. حتى أطفالها امتنعوا عن تصديقها. عُرف عنها أنها مقبرة الأحلام. تموت الأماني فيها حال ولادتها، وتُدفن مع رفيقاتها تحت طيات الزمان.

القريةٌ جميلةٌ إذا ما تعلق الأمر بجمالها الخارجي. مياهها عذبة وسماؤها صافية ونسائمها عليلة، لكنّ القليل من سكانها يرى شيئا من ذلك الجمال. فمتى كان الجمال مصدره من الخارج؟.

الجمالُ إن لم يخرج متدفقاً من الداخل، كان جمالاً زائفاً.

***

.... ماذا سنجهز؟

ماذا سنفعل إن أدركنا الوقت؟

كيف سيكون شكل الطاولة؟

أي الزهور سأختار؟.

أي طبق رئيسي سنصنع؟ وأي مقبلات؟.

وأي طبق حلوى سنتناول بعد العشاء؟.

على شفتي سارة انهالت الأسئلة مثل الإعصار. أخذت تركض هنا وهناك باحثةً عن كلّ شيء، تصنع أفكاراً، وتطبقها في نفس اللحظة. لم تنتظر إجابةً من عمتها على الكم الهائل من الأسئلة التي بدت تحضيرية لضيف شرفٍ بالغ الأهمية. كانت عمتها تحدق فيها بهدوء وكأنها تراها للمرة الأولى.

بدأتا بتحضير العشاء، جهزتا ورقَ العنبِ أولاً واللحم المشوي مع البصل وشوربة الفطر وطبق السلطة على طريقةِ أم سارة المتمدنة. لم تنسيا بالطبع القهوة العربية وكعكة التفاح.

وعلى رأسِ تلك القريةِ الأردنيةِ راحت سارة تلملم أزهاراً نمت مبكراً وتنسقها على طريقتها في "المزهرية" التي زينت بها مائدة العشاء لاستقبال ضيوف تشرين.

بدأت سارة بعد ذلك بتجهيز نفسها. ارتدت فستاناً طويلاً بلون السماء الصافية أيام الصيف، ذو أكمام طويلة وحزام فضي عريض ومنديلاً لتغطية الرأس والرقبة من القطن الناعم ذو أرضيةِ فضيةِ ومعينات زرقاء منسقة بشكل جميل. حاولت عمتها إقناعها أن تتطيب بالعطر الذي كانت قد أحضرته لها من أمريكا - ماركة "جيفينشي" - ولكنها أبت ذلك مراعاة لتعاليم الإسلام التي تُحرم التطيب لمن هم خارج نطاق المحارم. ألّحت عمتها كثيرا وهي تردد:" إنه من ماركة مشهورة ". لكن دون جدوى.

تهتم السيدة صفاء كثيراً بالماركات العالمية، وتؤمن كثيراً بدول ما وراء المحيط. عندما أتمّت عشرين عاماً من عمرها بدأت نظرات العنوسة تتوجه إليها في قريةِ ليس للفتاة فيها في ذلك الوقت شيء تفعله بعد الخامسة عشر إلا الزواج. حتى إذا دخلت سن العشرين تكون قد دخلت معه في الوقت بدل الضائع. لكن السيدة صفاء كانت قد تجاوزت الخامسة والعشرين، وفاتها قطار الزواج وابتعد كثيراً في عُرف الكثيرين.

عندما أتمت الثلاثين تزوجت من رجلِ فلسطيني تجاوز الخمسين، كانت زوجته قد توفيت. أخبرها أن لديه طفل، وأن عليها الاعتناء بكليهما. قبلت، تزوجا واصطحبها إلى أمريكا. كانت زوجة مطيعة وأماً حنوناً لأحمد. عاشت أجمل سنوات عمرها هناك كما كانت تدّعي على الدوام.

السيدةُ صفاء تحب النفوذ والسلطة، وترى أنه ما من بدٍّ في تحقيقهما إلا با لمال. فالمال هو الحل الأمثل لمشاكلِ الحياةِ مهما استعصت. كانت تتحدث دائما عن القوة التي استمدتها من الدولة التي استضافتها عشرين عاماً وهي تؤمن كثيراً بفرضيةِ

تقايضِ وضعتها لنفسها : "بقدر ما أخذّت مني تلك البلاد مـن غربـة وتعطشـاً للـوطن بقدر ما منحتني قوة واتزاناً وثقة".

وهكذا عادت السيدة صفاء إلى أرضِ الوطنِ بعـد تلـك السـنين، مُمتلئـة اتزانـاً وقوة، بعد أن غاب خيال زوجها في أزقةِ المـاضي ورحـل تاركـاً لهـا منـزلاً في "بوسـطن" وولداً لم تُنجبه ومالاً يكفيها لحياة كريمة.

***

عنـدما حـل المسـاء جلسـت سـارة في الشرـفة تنتظـر قـدوم الضـيوف. كانـت النسمات تهبّ من جهةِ الغربِ باردةً وعليلـةً ومـع ذلـك آثـرت البقـاء جالسـةً تُحـدق بالجبال، وتتأمل السحابَ الرمادي الذي كـان يمـر سريعـاً، فينقشـع عـن حركتـه، ضـوء القمر. كانت ترى ابتسامة جـمال مرسـومة في وجهـه المضيء خارجـاً مـن بـين القمـم. لوهلة، شعرت بقسوة الجبال تتضاءل، وأن الهواء قـد أصـبح أقـل بـرودة وأن الليـل لا يُمكن له أن يشتدَّ سواده مهما طال بحضوره. كانت فَرِحةً، عيونُها لامعة لولا باقـة مـن القلق بدأت تتسلل إلى قلبها تدريجياً.

خيّم الظلامُ سريعاً على كل شيء وابتلع معه الجبال والطرقـات. كـادت سـارة تغرق في سواده الحالك لولا ذاكرتها التي ألحّت عليها، فتمثل لها وجه أبيها. كان جالساً محاذياً لمقعدها، صامتاً، عابساً تحيط بعينه هالة كأنها كحل أسود. سَألَتهُ: "مـا بـك يـا أبي ؟ مالي أراك بائساً حزيناً؟".

والدُ سارة هو حدسُها الذي لا يخيب، نظرتُها الأولى إلى الأمور، و مـرآة نفسـها الصادقة، وانعكاس حقيقي لما تحدث نفسها به وما يجول في فكرها من خـواطر، وهـو صورةٌ حقيقيةٌ لقلقها وما يعتريها من توتر.

والدها كان يظهر لها في كثيرٍ من الأحيان ويتمثل لها أكثر في الأوقاتِ المصيرية. تذكر سارة جيداً أبيها أثناء الامتحانات الثانوية، لم يكن يتركها إلا وقت نومها، تستيقظ فتجده إلى جانب سريرها مبتسماً. كان يصطحبها في ذهابها إلى المدرسة، يشد على يدِها أثناء تأديتها الامتحان. طيفُه كان يؤنسها، وتستحضره ذاكرتُها بشكلٍ عفوي كلما شعرت بالخوف، أو كلما كانت على أعتابِ مستقبلٍ مجهول. كان وجه أبيها يأتيها ليخففَ من هواجِسها.

لم تدرك سارة السبب الحقيقي لوجود أبيها في مثل هذه الساعة. ربما كان الخوف، وربما كان المستقبل، وربما الخوف والمستقبل معاً. عادة ما كان يأتيها وجه أبيها مشرقاً فرحاً لا يشوبه كدر أو حزن، لكنه تمثل لها في ذلك اليوم على غير عادته، حاول جاهداً الابتسام لها فارتسمت على مُحيّاهِ ابتسامة صفراء عكرة ممزوجة بلمسة حزن.

قالوا لها :

"إن الموتى يحسون بالأحياء، يشعرون بهواجسهم". لكنها أدركت ذلك بتجربتها بعدما رحل والدها قبل أن تبلغ الخامسة عشر، وغاب خيال والدتها قبل ذلك بكثير، فتركاها بين يدي عمتها التي كانت عائدة من وراء المحيط تبحث لها عن أنيسٍ ورفيق، حتى أصبحتا رفيقتين بحكمِ ظروف الوحدة المشتركة التي جمعتهما، وبحكم أقدار الحزن التي أسميتاها غصّة.

كان بيتُ والد سارة كبيراً واسعاً. تعشقه سارة كثيراً، ويُشعرها دائماً بالأمان في قريةٍ تضخَّمت فيها القسوة حتى النخاع. يقع على رأس تل يُشرف على إطلالةٍ خصبة، وبجانبه تماماً يقع بيت السيد أبو جمال، لا يفصل بينهما إلا شجرة سرو واحدة عالية،

وتلفهما أشجار الصنوبر والسرو من الجهة الخلفية، ومن الأمام تتفتح الورود والنرجس بين أشجار الليمون والزيتون، بينما يغطي المدخل عرائش العنب المتسلقة.

لقد استخدم والد سارة حكمته في انتقاء مكان المنزل. كان بعيداً عن القرية قليلاً، يقع في بدايتها من جهة الشرق على رأس تل. كان قد ابتاع دونم أرض من أحد القرويين وبنى فوقها بيتين متشابهين. ورغم ابتعاد المنزل عن الناس، إلا أن سارة لم تكن تشعر بذلك بل اعتادته وآنسته. كان يسري في أرجاء منزلها هدوء رزين منظّم يبعث على السكينة. علمت سارة أن هذه السكينة مصدرها أنفاس والدها التي لازالت تسكنه رغم انقضاء الكثير من السنوات. كانت ترى في كلّ ركن من أركانه قصةً تُروى عن والدها، كلّ قطعةٍ فيه تقول أنها من اختياره، حتى حجارته، انتقاها والدها بعنايةٍ فائقة. لا يكاد يخلُ تصميه من مسحةٍ تُراثيةٍ مطلية بالحاضر. في منزلِ والد سارة بصماتٌ لعاشقٍ لم تسمح له الحياة بإكمال عشقه. كان طياراً في سلاحِ الجو يخدم وطنه بإخلاص. ولأن الإخلاص وافر الجزاء، استشهد ورفيقه إثر مناورةٍ لهما أثناء العمل حين تعطّل محرك الطائرة فهَوَت بهما ساقطة في عرض الصحراء.

لم يمنح القدر سارة من أبيها إلا سنوات طفولتها وبعضاً من مراهقتها، فنشأت بين يديه الطهورتين على حبِ الوطن وعشق الأرض. الحقيقةُ أن سارة لم تكن يوماً وفية لشيء أكثر من وطنها، تعلمت أن حب الوطن رسالة، والحب لا يكتمل إن لم يكن الوطن أول خطوةٍ فيه. وعندما تتعلم حب الوطن تتعلم حب كلّ شيء.

سارة هي الابنة الوحيدة لوالديها. فلم يشأ القدر أن يُنجبا غيرها. خطفهما الموت سريعا. كانت تختلف عن كلّ قريناتها من الفتيات، حتى أنها لم تكن لتنسجم

وتتوافق مع أي منهن. ربما لأن من ربّاها لم يكن إلا عاشقاً منحها كلّ الحب وكل الثقة في قرية تفتقر لهما كثيراً.

أما والدتها "فغريبة" هكذا كان يسمّيها البعض في القرية وحتى وقت قريب كان التغيير يعني الخروج عن العادة والمألوف. فبعد مرور أكثر من نصف قرن على نزوح أهل فلسطين إلى الأردن، وحصولهم على جوازاتِ أردنية، جنسيات، واختلاط الأنساب بالتزاوج، لا يزال يقال هذا "أردني فلسطيني" وهذا "أردني أردني". لا أحد ينسى منشأ أجداده. والجنسيةُ لا تعني التخلي عن الهوية سواء للضيف أو للمستضيف. لكن السر ليس في الهوية أو الجنسية، إنما في التعصب للمنشأ والخوف من ذوبان الأصول. تلك هي الرهبة التي تسيطر على الإنسان لمجرد التفكير أن مسقط رأسه سينتزع من أوراقه. يبدو له الفرق جلياً مُخيفاً إذا ما قيل أن أحدهم وُلد في القدس بدلا من إربد، أو أن والد والده ولد في عمان بدلا من رام الله. للجذورِ أهمية تعادل أهمية الأصل والفرع في القرية. لا لشيء، فقط لأن التغير مُخيف والانتماء الحقيقي لا يجب أن يكون إلا للجذر. وأن الخروج عن اسم القبيلة والعشيرة يعني الضياع.

والدةُ سارة "غريبة". فجدُّ والدها من نابلس الفلسطينية. تفوقت على كل نساء البلدة جمالاً وعلماً وفطنة. تربت ونشأت في العاصمة عمان، وتحمل طبائع التمدّن في كلّ تصرفاتها. هادئةٌ جداً، حكيمةٌ بقدر ما اكتسبت من تجارب زوجها، حنونةٌ بقدر ما أعطاها من ثقة.

لم يكونا زوجين مثاليين فحسب بل عاشقين ألِفا الوحدة والانعزال.

النساء المتمدنات في القرية غالباً ما يحظين بالكراهية من باقي النساء، يُرسم لهن المكائد، ثم تبدأ الإشاعات بالانتشار، وتبدأ الأكاذيب بالتفريط. لذلك فضّل والدُ سارة العيش بعيدا، فاختار مكاناً مناسباً نائياً عن الثرثرة. لكن ذلك لم يعفه من ذنبٍ ظلَّ يتجرع مرارته حتى الرمق الأخير. فقد كان ابتعاده سبباً -كما اعتقد- في وفاة زوجته. صورتها كما روتها سارة لم تكن تفارق ذاكرته.

صورةُ الموتِ في الوحدةِ بشعةٌ جداً وحمله ثقيل. حتى ثقلَ الموتِ يتوزع إذا ما أُريد له ذلك.

كان الوقتُ مساءً عندما صلّت والدتُها العشاء وتمددت على الأريكةِ الزرقاء في عُمق غرفة الجلوس. نادت على سارة بصوتٍ بالكاد سمعته، فاقتربت منها وأمسكت بيدها، كانت يداها باردتين ترتعشان، وشفتاها ترتجف. اقتربت سارة أكثر من فمها محاولة بذلك سماع ما كانت تُريد والدتها قوله، لكن قبل أن تصل إلى سارة كلماتها شهقت مرتين، وعند الثالثة فتحت عينيها، وأرخت يدها وبدأت تتصلب. سارة صرخت بكل ما أعطى الله من قوةٍ لطفلةٍ لم تتجاوز الثامنة. لم تكن تُدرك حينها أنه الموت، فهي تعلم أنه لا يُمكن له الاقتراب من الأمهات، لأنه يخاف لعنة أبنائهن.

فتحت سارة النوافذ والأبواب، ثم وقفت على العتبة تنتظر مارا، لكن أحداً لم يسمع صرخاتها. عادت إلى جوار والدتها، أخافتها عينيها المفتوحتين بجمود. مسحت بكفها على وجهها وقالت: "نامي يا أمي في سلام ".

استلقت سارة إلى جوار والدتها بسكون، يلفحها هواء تشرين ممزوجاً برائحةِ الموت الباردة حتى خرج النهار من مخبأه وخرج معه الطيور والفلاحين وروح والدة سارة إلى السماء. طارت مع الطيور، حلّقت بعيدا بصحبة طائر أخضر أقسمت - سارة -

أنها رأته يحمل عطر والدتها ثم ارتفع بهدوء وسلام. حينها انتظرت سارة كثيرا أمام المنزل، تنتظر عودة الطائر فيخبرها عن والدتها. حاول والدها إقناعها أن من يذهب إلى السماء لا يُمكن له العودة إلى الأرض يوماً إلا أنها رفضت تصديقه قائلة: "سترجع يا أبي سترجع".

وبعد مُضي سبع سنوات، عرفت أن والدها كان على حق عندما وصل نبأ إصابته، فهرعت إلى المستشفى برفقة السيدة صفاء وابن زوجها أحمد وعمها السيد أبو جمال وولده، لتسمع تلك الزفرات مرة أخرى، لكنها زفرات أبيها المحمومة التي تحمل اسمها: "سارة وصيتك يا أبا جمال".

ثم يبتلع ريقه ويُكمل: "سارة وصيتك يا صفاء، ليس لها أحد في هذه الحياة غيركما.. سارة وصيتك يا جمال، لا تتركها، عدوني ألا تتركوها وحيدة".

ظل والد سارة يهمهم ويتعرّق، وسارة تمسح على رأسه وتردد سورة يس، حتى أغمض عينيه وهو يهذي باسمها مراراً وتكراراً وهي تتشبث بيديه وتنهال عليه بالتقبيل. حينها أقسمت سارة مرة أخرى، أن طائراً أخضر جاء ليحمل شيئا من والدها إلى السماء حيث لا تعود الأرواح ولا تعود الحياة للأجساد مرة أخرى.

***

ضربة الحب الأولى موجعة.

كانت سارة واقفة أمام المدخل المؤدي إلى الشرفة عندما قُرع الجرس. نهضت العمة التي تظاهرت بمتابعة أحد البرامج التي تُعنى بالرقص وفتحت الباب. دخلت والدة جمال بقامتها الممشوقة وخصرها النحيل الذي لم تعبث به الأمومة كثيراً. كانت ترتدي معطفاً أسوداً قصيراً تتوسطه أزرار ذهبية تشع من فوق صدرها المنتفخ. ورغم تقدمها بالعمر إلا أن السنوات لم تستطع أن تأخذ من جمالها إلا قدر حفنة أرز في يد فقير جائع. وتنورة تطول عن ركبتيها قليلا بذات اللون، وشرابا لحميا يصف ويشف ما تحته ومنديلا فضيا يستر رأسها حتى المنتصف وقد تناثر شعرها الأصفر المصبوغ فوق جبينها.

"أهلا وسهلا ".. هتفت السيدة صفاء بحماس.

ثم دخل والد جمال ببذلته الرسمية الأنيقة وقامته القصيرة وبطنه الممتلئ. غزا الشيب شعره حتى منتصفه. كانت العمة لاتزال تُلقي بتحايا الترحيب عندما أغلق شقيقها الباب خلفه. بينما كانت سارة تقف متسمرة في ذهول وكأن الباب قد أقفل أمام أحلامها التي غزتها السنين فاستسلمت وعادت أدراجها.

"لكن أين جمال؟" .. سألت العمة متعجبة.

حاول الزوجان إخفاء ارتباكهما، وكأن أحدهما لم يقو على الإجابة. تقدما بهدوء فوق سجادة بنفسجية ابتاعتها العمة مؤخرا من أشهر محل لبيع الأثاث المستورد في عمّان، وقد بدا التردد واضحا عليهما. وبين الارتباك والتردد رفع أبو جمال يده خلف رأسه الأشيب مصطنعاً التفكير وردد بصوت منكسر:

- ليس أفضل من الصراحةِ والصدق في مثل هذه المواقف، اقتربي عزيزتي سارة فقد اشتقت إليك كثيراً.

اقتربت سارة بهدوء. كانت مثل عود خشبي يابس، فَقَدَ خصوبته منذ زمن، قبّلها عمها من جبينها واحتضنها بقوةٍ ثم شد على ذراعها فالتصقت بصدره .

- جمال خرج مع أصدقائه منذ الساعة الرابعة، نحن لم نخبره عن قصة العشاء هنا، تباً للغباء، أنا من يجب أن يُلقى باللومِ عليه، عندما اتصلتُ به كان في مأدبا، وتعلمين كم تبعد مأدبا عن هنا، ناهيك عن أصدقائه الذي لن يُجدي الاعتذار منهم.

اعتذر أبو جمال كثيراً، بينما تبادلت زوجتُه الحديثَ مع السيدةِ صفاء. ورغم حالة الذهول التي اكتنفت سارة إلا أنها حاولت طمأنة عمها الذي جلس يلتقف الطعام بنهم قائلة: "هون عليك عمو تَحدُث الكثير من الأشياء في هذه الحياة التي لا نكون قد أعددنا لها مسبقا.. فلا بأس".

كانت سارة مُثقلة بالحب، مُدركة تماماً حجمَ الصفعةِ الموجهة إليها، وأنه يجب عليها تجاوز عثرات كثيرة إن كانت ستستمر في علاقةٍ جادةٍ مع رجل من وراء المحيط. تتمتع سارة بالحكمة، تستطيع التعامل مع الحدث وفق معطياته، تعلمت الإذعان منذ كانت في الثامنة، عندما سكنت بجوار الموت قرب والدتها ليلة كاملة. تعلمت الاستسلام في الخامسة عشرة عندما أدركت أن هناك إرادة عُظمى هي أقوى من كلّ شيء. أما الخضوع فمارسته منذ اللحظة التي جرى في عروقها الحب. والتمرد على نفسها، كان سمةٌ قد ولَّدها الإذعان والاستسلام والخضوع. لذا فهي تذعن بإرادتها وتستسلم بالطريقة التي تحلو لها وتتمرد لتُلجَم ناراً يولدها الاختلاف رغماً عنها.

جلس الجميع صامتين أمام مائدة الطعام التي أُعدت لخمسة أشخاص وبقي المقعد المقابل لسارة فارغاً.

خيم السكون المقفر على كل شيء، ما خلا أصوات الطقطقة الصاردة من الملاعق والأطباق. كانت سارة غارقة في قفر آخر، تتجرع فيه الألم تدريجياً. كانت أعماقها تحترق كقدرٍ خالٍ أوقد من تحته اللهب. أما كلماتها فكانت تخرج مختنقة، مما جعل من وجود العم وزوجته عبئاً ثقيلاً فوق طاقتها، فأمضت ما يقارب الساعة مُنصته لأحاديث المفارقات بين الوطن وخارجه، تارة يقول أبو جمال: "في "بوسطن" نفعل كذا وكذا" وترد شقيقته : "يا أخي هنا لا يوجد ما تتحدث عنه هنا لا يوجد إلا كذا وكذا ". وسارة تعبث بطعامها دون أن يدخل إلى فيها منه شيء.

***

غا در الزوجان منزل السيدة صفاء عند العاشرة، كان الظلامُ قد غطّى القرية، وبدأت الأضواء تخفت شيئا فشيئا. استلقت سارة على سريرها، ثم هرعت إليها عمتها لتبرير ما حدث. حاولت واختلقت الحجج والأعذار.

- حبيبتي، التمسي له عذرا، صدقيني عمك لم يخبره عن موعده هنا، هو لا يعلم أن اليوم كان يجب علينا أن نُباشر الحديث في تفاصيل خطبتكما، و..و.....

- وماذا أيضا عمتي؟ أرجوك عمتي أنا لست غاضبة منه صدقيني، أنا أفهم جيدا أن حديثنا في الصباح، كان المدخل إلى أشياء كثيرة لن أستطيع شرحها لك الآن. لا تقلقي عمتي أنا بخير، فقط أنا مُتعبة قليلا وأريد أن أخلد إلى النوم.

ورغم محاولات عمتها البائسة في شرح تفاصيل ما حدث ومحاولة تبريره، إلا أن سارة وجدت من الحماقة أن تستمع لشيء تدرك تماماً أنه شرخ في بداية حب كان على وشك البلوغ، وأن ما حدث قد أغلق الباب أمامه ومنعه من الدخول.

أمضت سارة ليلتها حزينة. ازدحمت شهقاتها المكبوتة مع أنفاسها ووقفت وسط بلعومها ثم انفجرت بالبكاء مُخرجة الأنفاس والشهقات. سرت في جسدها قشعريرة أيقظت ما كان فيها من ذهول. تحول لهيبها إلى رمادٍ مُنطفئ. أغلقت هاتفها وسط ضجيج بكائها والظلام الذي لفّ عينيها. توسدت أفكارها وسمحت للألم أن يتجاوز عتبة جسدها ليدخل أعماقها بعنف. سارة تستبيح الألم لأنها به فقط تستطيع مواصلة العيش. رجت الله كثيراً أن يمنحها القدرة كي تتفوق على ذاتها وتتحرر من طقوس ضعفها وأن تخرج من قيود كبلتها.

ثم جلست خلف مكتبها تدوّن تحت عنوان:

الحبُّ هو إرادةٌ عظمى، لكن مواجهته خاسرة

" لا أملك الآن من أمري شيئاً، مسكت هاتفي لأغلقه فوجدت جرسه يدق، الرقم كان غريبا، فتحت الهاتف وأجبت بنعم، فأتاني صوته قريباً جداً: " مساء الخير".

تلعثمتُ قليلا، ثم ابتسمت. حاولتُ إخفاء فرحتي وأنا أُجِيب: " مساء النور".

" قولي لي كيف هي السهرة من دوني؟ جميلة كانت صح، ههه؟ ".

أدركت أنه يحاول الاعتذار، لا يمكن لجمال أن يعتذر إلا بأسلوبٍ ساخر، الحقيقةُ أنه مهما فعل تبقى تلك الروح العالية التي يحملها في جسده أجمل ما فيه.

" نعم كانت جميلة, لكن ... لكن...".

صمتُّ قليلا، وتبع صمتي دمعة وشهقة أخفيتها. وددت في تلك اللحظة أن أصرخ بأعلى صوتي أن اشتقت إليك، وأن لا معنى لشيء من دونك، لكني مسحتُ دمعتي وكتمت شهقتي وتابعت صمتي.

"سااارة، أعلم ما تحسين به الآن، لست بليداً إلى هذا الحد كي لا أشعر بحجم ما سببته لك الليلة، أعلم أن ما فعلته كان كبيراً لكن قلبك الكبير لن يستعصي- عليه المسامحة، أُريد أن أعتذر منك، لكني لا أجد الطريقة المناسبة، قولي لي ماذا أفعل وأنا أعلم أن كلمات الاعتذار بكلّ اللغات لا يُمكن لها أن تفي بالغرض".

كنتُ حزينةً جداً أكاد أختنق، أكفكف دمعي ثم أبتسم، صامتة وبركان كلماتِ في دمي يُوشك أن يتفجر، كان مزيجٌ نقيَ من مشاعرٍ لا أعرف له اسماً - غير أنه مزيج لذيذ – قد سيطر على حواسي فنسيت معه كلّ شيء. بكلمةٍ منه تخمد ثورتي، أتسامى مع صوته فأتبخر إلى عالم آخر. في صوته سحرٌ يُنسيني غضبي ويُلقي على ألمي مسكنا سريع المفعول فلا أعود بعدها أشعر بشيء إلا لحاجتي الملحة إليه في كلّ حين.

لم يكن أمامي خيار سوى المسامحة والاستسلام لعالمه المأهول بالمفاجآت كي أنعم بالسلام الروحي. شعرتُ للمرةِ الأولى بقسوته، شعرت بالاختلاف الكبير بين مسمياتنا للأشياء، اجتاحتني رغبةٌ في اقتحام قلبه، ووددت في تلك اللحظة أن أعرّيه من كلّ مخاوفه، وأن أتوغل في أعماقه وأزيح عنه كلّ أغطية الاختلاف التي تجعل من قلبينا ساحة لها. ثم بدأت بالاستسلام والنسيان، مقنعة نفسي أن ما يجمعنا ليس إلا قدراً جميلاً يرقى بنا إلى أفق أسميتها أنا أفق البراءة والتمرد، وأنا أعلم جيداً أنها أفق ضيقة، أفق جمال مليئة بالمفاجآت وأفقي مرهونة بطبائعه الغامضة."

القرية

غفت سارة قبل الفجر بقليل، وعندما أبى الدجاجُ الهاربُ من الديوك الممتلئ بالغرائز أن يجعلها تكمل نومها قررت النهوض باكرًا القريـة ، متثاقلة، كأنها تحمل

على أكتافها أطناناً من الفوضى والأحلام. تسبقها أقدامها وتخطو ببطء، كانت تحس بوهن وثقل في جميع أنحاء جسدها.

وقفَت أمام المرآة وحاولَت الابتسام جاهدةً، لكن شيئاً ما لم يسعفها للقيام بذلك. جرّت أقدامها بصعوبة كأنها تجرها نحو خيبتها، وارتدت ملابسها بكسل ثم خرجت من الباب الخلفي للمنزل. كان جمال يقف في شرفة بيته محدقا في اللاشيء، غارقا في صمته، يبدو كالباحث عن شيء لا يعرفه، ربما هويته أو رائحة أرض أعادت إليه انتماءَ لوطن لا يعرفه.

كان يرتدي سروالاً من الجينز الأزرق الموشح بالبياض وكنزه قطنية خضراء.. يمسك بيده اليمنى أحد الأعمدة المنتصبة على أطراف الشرفة وبيده الأخرى هاتفه الذي بدا وكأنه خُلق معه يلتصق به منذ الأزل.

عندما التقت عيناهما عن كثب شعرت سارة بقوةٍ تدفعها لتقصّي تفاصيل وجهه النقي. أطالت التحديق في عينيه بعد أن أومأ لها برأسه، فشعرت بقوى الحب والغضب تراودها عن نفسها. تملكها فضول كلّ قرويّي العالم لتتبع أجزاء جوفه الذي بدا لها منهكا. كادت تُغرقها تلك القوى لولا خروج والدته من أحد الأبواب بشعرها الأصفر المتطاير بفعل رياح تشرين الندية، فحجب معظم وجهها. حينها، بدأت سارة بالتتحرر من تلك القوى وأخذت تتسائل ماذا سيفعل القرويون عند رؤيتهم للشعر الأصفر؟ وبماذا ستثرثر نساء القرية؟ وأي غيرة واعتباط سَيَلُم بأساريرهن؟.

في قريةِ السعادة النائية، لا تُرى السيدات الا محتشمات، لا يُرى منهن الشعر ولا أي شيء آخر سوى الوجه والكفين. تحكمهن عادات وتقاليد. بعضهن يتسترن بدافع الدين بلا شك، وبعضهن يخضع لقوانينِ صارمةٍ فرضها البشر لدوافع خاصة بهم تعتمد

على أمزجتهم ورغباتهم. فعادات القرية وتقاليدها تحكم النساء أكثر من الرجال، تُجردهن من حقوق قد منحها لهن الإسلام. لكن أصابع البشر التي لا تتوقف عن صياغة أُسس جعلت الكثير منهن سلعا قابلة للتداول، أو كأي من مقتنيات الرجال المخصصة للمتعة، وفي كثير من الأحيان، عاملة من دون أجر.

المرأه في قرية السعادة تعمل في كلّ شيء. منهن المعلمة، الطبيبة، والعاملة في المهن الحِرفية. منهن المُزارعة التي تسقي وتُطعم الدواب مع أول خيوط الفجر، ترتاد البساتين، تحلب الماشية، ترمم البيوت المهترئة، تفعل ما تستطيع فعله في مجتمع ذكوري يحكمها بالقسوة والكلمة الجافة. وعند المساء تُسحب الضعيفة منهن من ذراعها نحو الفراش وتُمدد كباقي الأغطية الدافئة فوق الوسائد الخشنة، فيأخذ الرجلُ ما بقي في روحها من حياة ارضاء لرغباته، ثم تنكفئ بعد ذلك على وجهها ساكنة بلا حراك. المرأة في قرية السعادة ضعيفة لا تجرؤ على قول لا، لا تقوى على الوقوف في وجه الرجل. طيبة لكنها ليست ساذجة، تُدرك كما الكثير أن المشكلة في العادات والتقاليد والخوف من التغيير. تعرف أن القوة تكمن في التمرد، وقول لا، يعني التمرد الذي سيعقبه التغيير. ومن دون التغيير تبقى الأحلام تحت الوسائد .

بدأت سارة تخطو بخطوات هادئة عندما انهالت على ذهنها خيال السيدات العاملات، النساء المحجبات والمرأة التي تقف على شرفتها بشعرها الأصفر المتناثر.

أتى صوتها : "جمال .. جمال".

أجاب جمال والدته بهدوء: " حسنا."

تلاشت مع صوته صور العادات والتقاليد التي تجمعت في ذاكرتها، وبدأت كلّ القوى بالتراجع في صمت، كما جاءت، ذهبت كأنها آتية من العدم. استجمعت سارة ما

بُعثر من أفكارها وانطلقت مسرعة نحو جامعتها ترافقها أوراق تشرين الملونة في كلّ خطواتها.

كان على سارة المشي نزولاً ما لا يقل عن خمسمائة متر كي تصل إلى حواف القرية عند موقف الحافلات. سارت على جانب الطريق حيث تنتشر أشجار اللوز والمشمش بكثره أمام المنازل، والتي أخذ الخريفُ جميع أوراقها واستعدت لغسل أغصانها مبكراً.

كانت أشجار الزيتون تظهر لسارة بكامل خصوبتها وقد أثمرت وأينعت وحان وقت قطافها. ألقت التحية على امرأة في العقد السادس من عمرها، غطت رأسها بوشاحِ أسودٍ طويل، وأدخلت أحد أطرافه في ثوبها الأسود، وافترشت أغطية بيضاء مخيطة من أكياس بلاستيكة متصلة بعضها بعض. كانت تجلس تحت أشجار الزيتون تجمع ما وقع على الأرضِ من حبات. نظرت إلى أعلى فرأت رجلاً طويل القامة، أشعث يرتدي زياً أشبه بزي الفدائيين أيام الحرب، سروالاً وقميصاً "كاكي" اللون. ووشاحاً يسمى "شماغ" مكون من مربعات بيضاء وحمراء لف به وجهه ورأسه اتقاء الأتربة الهابطة عليه من جذوع الشجر.

واصلت سارة طريقها نزولاً في الطريق العام وقد أعاقها حذاؤها قليلاً. رغم أنها لا ترتدي الكعب العالي أبداً، إلّا أنه في ذلك اليوم على غير العادة قد بدا لها – حذاؤها المنبسط- غير مريح. لم تتأخر .. وصلت وكانت الحافلة لم تصل بعد. موقف الحافلة يعني الفوضى والعشوائية، وليس مُجدياً أبداً الوصول باكراً طالما أن لا تنظيم هناك أو ترتيب يضمن الأدوار رغم محاولات جاهدة من البعض والتي تبوء بالفشل دائما.

كانت بنات القرية يتجمعن في جهة من الشارع، بينما يقف الذكور في المنطقة المقابلة. ارتأت سارة أن لا تكون مع أي من الجهتين. بعض الفتيات رمقنها بامتعاض .. تهامسهن وأصدرن ضحكات غير محببة، ففضلت عدم الاقتراب منهن أكثر. في القرية لا يتوافق الدم النسوي كثيرا ولا تجتمع النساء فيه إلا على غيبة أو نميمة أو تدبير مكيدة. وفي الوضع الطبيعي يجتمعن لتبث كلّ منهن الشكوى في أذن الأخرى على أمل أن يجدن طريق الخلاص. كانت الفتيات لا يختلفن كثيراً عن النساء رغم ثورة العلم الهائلة التي اجتاحت القرية. إن الأفكار والمعتقدات والتصرفات والثرثرة ليست إلا موروثا متناقلا من جيل إلى جيل يُخرج في المحصلة جيلاً يشبه إلى حدٍ كبيرٍ الجيل الذي يسبقه مع بعض التحسينات، لكنه في الواقع نفس الجيل، بنفس المعتقدات والإيمان الراسخ بعقائدِ التي لا تتغير، وبذات الهواجس التي تملأ قلوب الجميع خوفا من الانفتاح الذي يعني بالضرورة لديهم مخالفة العقيدة. الحقيقة أن التعصّبَ للوطنِ لا يعني بالضرورة الوطنية، والتعصبَ للدين لا يعني أيضا التدين. التعصّبٌ هو التطرف .. هو عدم تقبل الفكر الآخر أيّا كان، حتى لو كان صائبا.

في قرية السعادة الاختلاف في وجهات النظر شيء غير مرحب به، والخروج عن العادات، يُدعى عيب حتى وإن كان لا يخالف الإسلام ولا يخرج عن الأخلاق. فمنظومة العيب أخذت بالازدياد مؤخراً رغم خروج القرية من قاع القرى النائية وخروج أبنائها إلى دوائر العلم والمعرفة. لكن وبحكم العادات والتقاليد يجب على الجميع أن ينتقلوا من الطفولة المبكرة إلى الكهولة المفرطة. فإما أن يحيوا كأطفال حمقى سذّج .. أو كهولاً عاجزين يحفرون أحلامهم في قبور اليأس.

المراهقةُ مرحلةٌ انتقاليةٌ لا مُسمى لها في قريةٍ تعتبر المراهقة أول ضوء الانحراف المؤدي إلى العيب. فلا يُسمح لعقل المراهق بالتفكير.. عيب.

ولا التحدث بأحلامه.. عيب.

الحبّ والجنس خطوط حمراء .. عيب.

المناهج المدرسية التي تتحدث عن الإخصاب ودورة حياة الإنسان أو حتى الحيوان.. عيب.

التحدث في شأن دين غير الإسلام .. عيب.

التعرف على ثقافات الشعوب .. عيب.

العيب يعني الخروج عن المألوف، إنها ثقافة متجذرة، لا مناص قريب للتخلص منها.

وقفت سارة قرب حفرة امتلأت بماء تشرين .في كلّ ركن من المكان قصة يحملها صاحبها بين عينيه.

شعرت سارة بقليل من الدوار ربما لأن ليلتها كانت قاسية بفعل هواجسٍ وتكهّناتٍ لم تترك لها وقتاً كافياً للنوم. بحثت في حقيبتها عن حبة مسكن ألم، وعندما لم تجدها تذكرت أنها كانت مُخطئة. فقد أفرغت محتويات الحقيبة في أخرى قبل مغادرتها المنزل بلحظات. كانت سارة تنظر في الوجوه التي بالمكان كأنها تنظر في أعماقهم، فعلى الجهة التي تقابلها مباشرة كان يقف طالب جامعي يحمل في يسراه كتابا ويضع يمناه في جيبه. في وجهه رسمت ابتسامة عاشق، رأتها سارة في شفتيه الورديتين عن بعد. انتقلت ببصرها نحو شاب أربعيني كان يمسك في إحدى يديه دلواً مالَ لونه إلى البني وباليد الأخرى عصا أسنانها مدببة. كان أفيفه لا يتوقف فموسم قطف الزيتون كان يعني للكثيرين التأفف. تجاهلت سارة التأفف إثر سماعها لصوت امرأة عجوز تجاوزت السبعين، كان المرض قد أنهكها، مالَ وجهها إلى الصفرة، وأسنانها التي أهلكها التسوس لم يبقَ منها إلا القليل. أمسكت سارة بيد العجوز، ساعدتها على

الجلوس فوق حجر مسطح. شاب آخر جاء وافترش الأرض إلى جانبها، لم يتفوه بكلمة. أخذ يعبث بهاتفه ضاحكا بينما العجوز لا يتوقف لسانها عن ذكر الله والاستغفار.

عندما وصلت الحافلة ركض الجميع نحوها. أسعف الحظ سارة كثيراً، وقفت الحافلة على مقربة منها وفُتح الباب أمامها مباشرة. تدافع الجميع ودفعوا بها داخلاً. أحست بكوع أحدهم قد لَكَم خدها الأيسر لكنه تابع تقدمه .. كانت تعزي نفسها بقولها دائما: "لا بأس .. إنها الساعة الثامنة. أكون أو لا أكون ولا بد من لَكَمات الصباح مع كلّ رحلة إلى الجامعة".

عندما صعدت كانت الأغاني الصاخبة تُدوي في أركان الحافلة يُرافقها بكاء الأطفال وتأفف الفلاحين وثرثرات النساء. اعتدلت سارة داخل مقعدها، ثم جاءت امرأة حاولت عبثاً تقدير عمرها جلست بجانبها. أعمار نساء القرية يصعب التكهن بها لأنها لا تُقاس بسنوات العمر المنصرمة، بل بما فعلت السنوات بأجسادهن وما خلفت وراءها من تجاعيد وأنّات. وغالبا ما يكون عمر النساء أقل بكثير مما يظهر عليهن.

وضعت السيدة حقيبتها على أرضية الحافلة المغبرة والممتلئة بالطين من جراء الأحذية المنغمسة فيه، ثم وضعت رضيعتها في حضنها وطفلة أخرى لم تتجاوز العامين أجلستها تحت قدميها. التصقت سارة بالنافذة، رغماً عنها، لكنها انتبهت لانتفاخ في بطن السيدة رغم ذلك. شكَّت أن يكون طفل ثالث في أحشائها. أراد قدرها أن تجلس وأربعة أشخاص على مقعد لا يتسع الّا لراكبين.

- أنتِ سارة..أليس كذلك؟... قالت السيدة.
- نعم خالتي أنا سارة.
- يا إلهي ، شبه والدتك رحمة الله عليها.

مدّت السيدةُ يدَها نحو سارة التي وصلت إليها بعناء، اضطرت أن تخترق حاجز الطفلتين والجنين.

- كيف حالك يا ابنتي؟ سمعت أن جمال قد جاء من آخر مكان في الدنيا ليخطبك؟ قولي لي لا تخجلي خالتي .. هل هذا صحيح؟ آه يا بنتي، أريد أن أ قول لك شيئاً يتكلم عنه الجميع. تَفَلت المرأة فوق صدرها وهي تردد استغفر الله العظيم أنا لا أضع في ذمتي، لكني سأخبرك.
- نعم خالتي انا أسمعك تفضلي. قالت سارة باهتمام.
- يقولون والعياذ بالله أن جمال قد ارتدَّ عن ديننا، يا إلهي سامحني على هذا الكلام، يقولون أنه مُلحد بلا دين. وأنت تعرفين أن الزواج من غير المسلم باطل .. لا يجوز يا ابنتي. إن الزواج من غير المصلي باطل فكيف من غير المسلم.!!.
- لكن جمال مسلم خالتي، أنا أؤكد لك ذلك.
- لا دخان من غير نار يا ابنتي، الرجلُ مرآة أبيه، وعمك أبو جمال لا يعرف له خالقاً ولا يعرف له ديناً، لكنّ أمره لا يعنينا، ما يعنينا هو أنت يا ابنتي، فكري جيدا هذا أمر لا يجب التساهل فيه.

تنبهت ساره للخطر الذي يحدق بها وأنه لا يمكن التهاون بأمر كهذا تتناقله القرية وإن لم يكن صائباً.

- حاضر خالتي، كوني مطمئنة.

راحت سارة تنظر عبر النافذة المغلقة إلى الجبال اللامنتهية المُؤدية إلى المدينة. لكن السيدة لم تقف عند ذلك الحد، بل ألّحت وأعادت تكرار ما قالته، كانت في كلّ مرة تكرر نفس الكلمات وتُعيد ترتيبها، بينما سارة تدعو في نفسها أن تتوقف عن ذلك. عندها سمع الله نداءها، علا صوت الرضيع بالبكاء وانشغلت السيدة بإسكاته :

- هششش.... هششششششش ...

أسندت سارة رأسها إلى النافذة رغبة منها في إقصاء أفكار وُلدت لتوها في خيالها ومضت بها إلى عالم آخر وهي تردد بتعجب: "معقول.. !! لالالا مجرد ثرثرات"

استمر بكاء الطفل لأكثر من خمس وأربعين دقيقة. كان صوته يعلو ويهبط مع تعرجات الطريق، كان الضجيج في كلّ ركن. بحثت سارة مجدداً عن مسكن ألم. كانت قوى التمرد تلح عليها أن تصرخ بأعلى صوتها لتُسكت الضجيج الهادر، لكن وجه أبيها لم يُسعفها، رافقها منذ بدأت السيدةُ بالحديث، كان كأنفاسها، يُسكت غضبها.

نزلت سارة من الحافلة تتأفف، وكأن عدوى التأفف قد انتقلت إليها رغم أنها عادة تكرها وتنبذها. لكنها بدت لها أفضل ما تقوم به في يوم كان مختلفاً منذ البداية. فقد عبثت الطفلة بملابسها وهي تتشبث بها عند كلّ انحناءةٍ عبر الطريق، وعند كلّ تعرج. كانت الحافلة تتلوى بين الجبال وتدخل منعطف وتخرج من آخر والطفلة متمسكة بأكمامها. وعند الوصول كانت أكفّ الفتاة قد التصقتا تماما بأطراف عباءتها لدرجة أنها وجدت صعوبة بالغة في انتزاعهما. فقد جفت الحلوى وعلقت تماما بالملابس كما يتلصق الصمغ بالورق.

كانت سارة تتساءل مما تصنع هذه الحلوى؟ وهي تُحاول انتزاع ما تبقى منها وتفكر بالمادة الصمغية التي أُدخلت إليها لتعدلها. يئِست من تنظفيها. همت بركوب "السرفيس "، المحطة التالية في طريق الجامعة الطويل وهي تتمنى لو كان بوسعها بيع الأرض التي ورثتها عن أبيها لتشتري سيارة تختصر بها كلّ هذه المسافات، لكن عشقها للأرض كان حاجزا يقف دائما أمام محاولاتها.

خافت سارة وانقبض قلبها عندما فتحت باب "السرفيس"و يد أخرى أغلقته وقبضت على يدها بقوة. صرخت، ثم أدارت رأسها بالتفاتة سريعه، تفاجئت عندما رأت جمال يقف إلى جانبها. شهقت بملء صدرها:

- جمال! متى وصلت إلى هنا وكيف؟.

أشار بيده نحو سيارة مرسيدس سوداء:

- الآن، وبهذه.

فتح باب سيارته: "تفضلي". كان جمال قد ركن السيارة قريبا.

بدا لها الفرق واضحا عن جلسة الحافلة.

- قلت لنفسي علي أن ألقي تحية الصباح لكن على طريقتي. ..

قال جمال وهو يدير مفتاح السيارة.

حاولت سارة إخفاء ابتسامتها. كانت سعيدة به. تُدهشها طريقته بالحب المليئة بالمفاجآت. سارت بهما السيارة على طريق مستقيم، معبّد، تحفه مساحات واسعة من التربةِ الحمراء الخصبة المبتلة على امتداد البصر. كانت السماء مكتظة

بالغيوم بينما الشمس تُحاول مجتهدة أن تنثر أشعتها من خلال الفراغات التي تفصل بينها.

عندما وصلا إلى التقاطع المؤدي إلى الجامعة التف جمال نحو طريق آخر. دُهشت سارة، تماسكت قليلا، لكنها لم تلبث أن ارتبكت. لم تسأله عن السبب. عندما توغلا في المساحات الزراعية حاول جمال التخفيف من سرعته منتبها إلى وعورة الطريق الفرعي. رافقهما الصمت لدقائق حاول جمال كسره:

- لا زلت تستمعين إلى فيروز صباحا؟.
- امممم.... طبعا فيروز والقهوة عاداتي الصباحية التي لا تتغير.
- حاضر يا ستي...

انحنى جمال قليلا نحو اليمين مادّاً يده نحو صندوقٍ استقر أمام ركبتي سارة وفتحه متناولا شريط كاسيت. كادت أكتافهما تتلامس. أغمضت سارة عينيها بعدها أخذت نفساً عميقاً وانسحبت مع رائحة عطره إلى أحلامها. فقدت وعيها للحظات ثم استردته مباشرة عندما علا صوت فيروز:

"بعدك على بالي ... يا قمر الحلوين ... يا زهرة تشرين ... يا ذهب الغالي.."

عاودا الاستمتاع بالصمت والإنصات. نظرت سارة إلى وجهه فارتسمت على شفتيه ابتسامة. كان جمال يراقبها دون أن يلتفت، تتحرك عيناه بسرعة ذاهبة شمالا ويمينا.

- أصدقيني ا لقول سارة، كيف هي دراستك؟ هيّا عليك الانتهاء منها، قد لا يمكنني الصبر أكثر.

- سأنهِها جمال، لا تقلق لم يبق الكثير.

حواجز الصمت خاصتهما كثيرة لكنهما يتجاوزانها بأحاديث جدية.

سارة لا تُفصح .. وجمال لا يُخرج ما فيه صدره. كانا كغريبين نبشا حفرة موصدة وتبينا ما بداخلها. كلاهما يعرف ما يكمن في أعماق الآخر. كلاهما يخشى المبادرة، فالخوف هو أول الطريق وما يتلو ذلك من خطوات قد يكون أسهل بكثير.

شعرت سارة بالضيق:

- أعتقد أننا قد ابتعدنا كثيراً.
- خائفة مني؟
- وهل تأكل لحوم البشر؟
- ما يدريكِ؟ .. ربما .
- لا لست خائفة منك حتى لو كنت كذلك ، لكني لا أرغب في التأخر عن محاضرتي.
- إذن .. لنقف هنا قليلا، ما رأيك؟.

قبل أن يسمع الإجابة، أطفأ جمال السيارة ثم ترجل منها، وفعلت سارة مثله. كانت السماءُ ممتدةً عبر فضاءٍ واسع، والمكان خاليا تماما إلا من لونها الأزرق ولون التراب الأحمر الندي. و قفا متجاورين يُسندان ظهريهما إلى صندوق السيارة الأمامي.

- سارة. سأعترف لك بشيء، وأرجو أن يأخذني قلبك الكبير بحلمه.
- يبدو أن الأمر خطير جداً، وإلا لما تحدثت بكل هذه الجدية.

- نعم .. نعم سارة ليس أخطر على علاقة المرء بمن يحب من الكذب، وأنا .. أنا كذبت عليك ليلة أمس.

لم تظهر على سارة مظاهر تعجبٍ، فكرت قليلا ثم أجابت:

- هل تعلم جمال، رغم كلّ التوافق الروحي الذي يجمعنا، إلا أنك إلى الآن لم تصل إلى المرحلة الحقيقية منه. جمال أنا لا يستعصي عليّ معرفة ذلك، أعلم أنك كذبت وأعرف أنك لم تكن برفقةِ أصدقائك يوم أمس. أعرف نوبات الضيق والضجر التي تحتويك، في كلّ مرة تطأ قدماك هذه الأرض. أنا لا أُلقِ باللوم عليك، صدقني، أنت محق. الوطنيةُ شيءٌ لا يُكتسب بعد عمر معين. الوطنيةُ ثقافة، والانتماء غريزة فطرية. نحن لم نخْتر أوطاننا وهوياتنا وأصولنا، لكن حبها يُزرع فينا بذرة منذ اللحظة الأولى لولادتنا، عندما يُؤذَّن في أذننا اليمنى يكون ديننا الإسلام، وعندما نُعمَّد نكونُ مسيحين، كلٌّ حسب طقوس دينه. ثم نُسمّى بأسمائنا وأسماء والدينا وعائلاتهم التي نُنسب إليها دون رغبةٍ منا أو خيار. ونُزجُّ داخل الوطن الذي نعيش فيه فيكون وطننا الذي لم نختره أيضا، كلّ نزعةِ قوميةِ أو دينيةٍ تنمو فينا يُغذيها المحيط الذي يحتوينا. أنا أتفهم ذلك جمال، لا تبرر شيئا. أنت لم تُزرع فيك البذرة فكيف لها أن تنمو من الأساس. وكذلك هي قضية الحجاب التي روَّعتكَ البارحة لسبب أجهلُه، وغيرها من قضايا ديني وبلدي. كان يكفي جمال أن تُهاتفني مساءَ وتعتذر، وقتها لن تضطر إلى كلّ هذه العناء.

ابتسم جمال ابتسامة خجِلة خرج في نهايتا صوت يشبه التنهيدة:

- كم أحسّ بوضاعتي أمامك يا سارة، عندما تتحدثين بهذه الطريقة، كيف غاب هذا الأمر عني لا أعلم.

وقفا صامتين لدقائق. كانت يداهما قريبتين تكاد أن تتلامسا، فجأه، أحست سارة بحرارةِ يده تطفح فوق يدها، حاولت سحبها، لكنه باغتها بجسده كاملا فقابلها، حتى أصبحت في مواجهته وجها لوجه. وضع يديه حول خصرها، عانقها، ضمها بقوة .. ارتعشت من فورها ونفضت يديه بعنف. حاولت الإفلات.

- سارة, اهدأي قليلاً من فضلك.

هرولت سارة مسرعة نحو السيارة وفتحت الباب ثم دخلت. لحقها جمال وأدار المحرك فعادت فيروز وعاد صمتهما. لم يتفوها بكلمة وعادا أدراجهما في ذات الطريق. عندما وصلا بوابة الجامعة، قال جمال :

- سأنتظر منك مكالمة عندما تنتهين، سأكون خارجاً.
- لا جمال ربما سأتأخر قليلاً، اذهب أنت.
- لا سارة لن أذهب إلى أي مكان، علينا تسوية الأمر، سأبقى وسنتكلم لاحقا عندما تنتهين، اتفقنا؟.

ردت سارة باستسلام:

- نعم اتفقنا.

***

المصارحة

كان الانتظار صعباً على كليهما، في الوقت الذي ليس لدى أي منهما شيئا يفعله سوى الوقوف عند قارعة الزمن الملطخ بدقائق العتاب. كان كلّ منهما يشعر بالخجل من الآخر لسبب يراه مقنعاً. وقد كانت الدقائق التي قررا فيما بعد أن تكون قصيرة، دقائق ثقيلة لم يستطيعا مع ثقلها تسوية أي من الأمور مع نفسيهما.

كانت سارة غارقة في أحلامها التي بدأ الواقع يغزوها، والتي أخذت بالتحول إلى رماد بين الحين والأخر، بينما لم يترك جمال لحظةً واحدةً تمضي دون أن تكون صورة سارة في خياله.

لم تجد سارة مبرراً لخطأين ارتكبهما جمال في أقل من يوم وليلة. ولم يجد جمال بُدّا من كسر حواجز تفصلهما بطريقة يراها منطقية. وعلى الرغم من أن كليهما كان على علم بطبائع الآخر وتفهمٍ لها إلا أن صبر جمال كان قد بدأ ينضب على حب في قلبه، كلّ يوم يتقد.

وفيما مضى كانت سارة وجمال قد اتفقا فيما بينهما على احترام كلّ منهما لأفكار الآخر، دون المساس بأحاسيس جمعتهما. كان ذلك عندما أدركا، ومن خلال حوار جمعهما باستمرار أن كلّ منهما يحبو بفكره نحو أهدافٍ لا يُمكن أن تكون يوما ما مشتركة فيما بينهما، حتى يُحدث الله لهما أمرا.

ففي منتصف ربيع هادئ صارعت فيه سارة أعباء الثانوية العامة، كان جمال قد حل ضيفاً على عمته السيدة صفاء في حديقة المنزل المزدانة بأشجار الزيتون والمحاطة بأشجار السرو العالية التي تمنع الفضوليين من استراق النظر .

بعد أن جاءت سارة بالقهوة، مد جمال يده مصافحاً، إلا أن سارة امتنعت عن ذلك ووضعت يدها فوق صدرها معتذرة وقالت بهدوء: "كيف حالك؟....."

السيدةُ صفاء وقفت فوراً متخذة من نسيانها للطعام فوق النار، ذريعة لتركهما وحيدين مع أشجار الحديقة. استرجع جمال يده إلى الخلف، ثم تناول قهوته، وعلت وجهه ابتسامة صفراء عبثت بمزاجه لكنها لم تدم طويلاً، إذ أن سارة بادرت في تبرير تصرفها على أنه أمر إسلامي، حرّم به على المرأة مصافحة الرجال لغير محارمها.

لم يجد جمال صعوبة في تفهم ذلك رغم أن ما يحمل في جوفه من دين قد تعثر بين آراء رجاله. فقد كان جمال يرى الدين الإسلامي، دينا متبدلا بتبدل أهواء مفتينه ورجاله. كان يجلس لساعات طويلة أمام شاشة الحاسوب يتلقّن بها دروساً لا تكاد تلمس جزءاً صغيراً من قلبه ولو بمقدار ظفر أنملة. كان يفكر كثيراً في حبٍ غير مُتكافئ ربما لن تُكتب له نهاية. فهو لا يرى في الزواج حلاً نهائياً ولا بالابتعاد جدوى للنسيان.

كانت سارة طريقه إلى دين يُؤمن به ولا يؤمن بشعائره، وكان الدين وسيلته للتقرب من سارة وامتلاك قلبها. كان يخشى على نفسه من الانصياع وراء عابرات السرير فيفقد عذريته ويخسر نفسه أمام حب يحتفظ به ليوم يتكلل باللقاء. ورغم أن الحب قد قُدِّم له على طبقٍ من ذهب، في مجتمع يبيح له كلّ شيء، إلا أنه صان عهدا قديما قطعه على نفسه، وحفظ حبا نقيا لا يحتمل الخيانة، فقد كانت سارة كثيرا ما تتركه مبللا بعد حلم جميل، ودّ لو لم يستيقظ منه أو يفق من نشوته.

قرب بحيرة الجامعة، جلست سارة، ترمي الحصاة تلو الاخرى وتسمع وقعها داخل المياة التي تغير لونها إلى الأخضر جراء انتشار الطحالب فيها. كان للبحيرة رائحة تعفن نتنه، لكنه المكان الوحيد الذي يلجأ إليه الطلاب عند إحساسهم بالوحدة أو عند

حاجتهم لوعاء يلقون فيه أوجاعهم. كانت البحيرة ملاذاً للكثير كلما احتاجوا إلى الهدوء. ورغم أن منظر الماء في كثير من الأحيان يبعث على الاشمئزاز إلا أن المكان كان خياراً جيداً لمن أراد التفكير بعمق. أحياناً المكان السيء يولد الافكار، قد لا يكون ذلك صحيحا، لكنه يحدث وقد حدث بالفعل.

تحت غصن شجرة عارية الأغصان، جلست فتاة وشاب، مالت الفتاة برأسها على كتف الشاب، بينما وضع الشاب يده خلف ظهرها، كانت سارة تفكر بما يهمس لها وتهمس له في تلك اللحظة، ليس في المكان ما يدعو إلى الرومانسية والحب، لكنهما قد وجدا فيه ضالتهما.

رن جرس هاتف سارة بعد مرور ساعة على جلوسها قرب البحيرة:

- الو.....
- سارة هل انتهيت؟.
- نعم جمال انتهيت.
- هيا إذن أنا أنتظرك خارجا.

خطر لسارة أن تدعوه إلى هذا المكان، إلا أنها تراجعت مباشرة عندما فكرت بالأمر على أنه ضرب من ضروب الجنون. فلا يمكن لمثل هذا المكان أن يُعجب جمال أبداً فهي تعلم تماماً أن بيئتها لا تُعجبه، فعزفت عن فكرتها سريعا.

شقت سارة طريقها عبر الممرات الترابية الضيقة بين الشجيرات، تاركة رائحة الطحالب ورائها تعزف ألحاناً خضراء برفقةِ البطّ الأسود.

كان للسيرِ عبر أراضي الجامعة الممتدة، مُتعة تجدها سارة تضاهي متعة رحالة متجول في أراضي الله الغنية بالمعلومات. شقت طريقها عبر البوابات المتصلة بالساحات الخاصة لكل كلية وصولاً إلى البوابة الرئيسية. لم يكن سيراً ممتعاً وحسب، بل كان ممزوجا بتواشيح الحب المنكسر. كانت سارة تعلم جيدا أنها أمام مُنحدر حاد، اجتيازها له يتطلب تنازلات كثيرة، وعلى صُعدٍ مختلفة. فالحب لا يعني بالضرورة التجانس بقدر ما يعني التجاذب، والتجاذب لا يكون إلا في الاختلاف. فالكون وُجد من الاختلاف وبدا ذلك واضحا في الطبيعة، ذكر وأنثى، أسود وأبيض، سالب وموجب. وفي كلّ الأضداد لا بد من وجود الضد ليبينه ويظهره، وكل الأضداد تتجاذب وتشترك، وكل المتشابهات تتنافر وتبتعد. وحالُ الحبِّ هو حال الطبيعة، واجتياز عقبة الحب للتجاذب يعني تجاوز نقاط الخلاف مهما عَظُمَت.

رافق الصمت مجدداً جمال وسارة في طريقهما نحو منحدر التفاهم، كان لا بد وأن يُلقي أحد منهما بثقله عن كتفيه، كي يصبح خفيفاً ويغوص في أعماق الآخر ليتجاوز العائق بنجاح.

- هل نشرب القهوة في مكانٍ عام أنت تختارينه؟ ما رأيك في مقهى(الرسام)، إنه قريب من هنا. أم؟.....

صمتَ جمال ولم يُكمل، أراد أن يبدي استياءه أمام تحفظ سارة، إلا أنه فضل عدم الخوض في نقاشٍ قد يُؤدي إلى نتيجةٍ أكثر جدلية.

– كما تشاء جمال.

تبسم جمال كعادته:

- سارة لا يُمكن لنا أن نستمر بهذه الطريقة، أنا لا أتكلم عن المفاهيم التي تحدثتِ عنها، بل عن علاقتنا التي ستكون جدية فيما بعد، لا يُمكن لنا أن نقف عند كلّ مفترق، لن نستطيع الاستمرار.

- وما هي المفترقات التي واجهناها إلى الآن جمال؟ حدثني عن شيء غير قضية الحجاب التي تناولناها بشكل عام، واتخذت أنت منها ذريعةً لعدم حضورك اجتماعاً هاماً يجمعنا نحن الاثنين. أي مفترق تتحدث عنه ونحن حتى تلك اللحظة التي حاولت بها عناقي، كنت تحترم خصوصيتنا بل وتصرّ على احترامها.

- سارة كُفي عن ذلك أرجوك، كفاك تذكيري بذلك كلما سنحت لك الفرصة.

- أنا لا أذكرك بشيء جمال، كلّ ما في الأمر أني أحاول القول أنك أنت من بدأ بوضع تلك المفترقات.

- أنا لا أضع شيئا سارة ، كفاك اتهامات من فضلك.

دارت عجلةُ الصمت بينهما مرة أخرى، وصلا المكان الذي اتفقا أن يُتما الحديث فيه. جلسا في مقهى يكاد يخلو من كلّ شيء، إلا من أصوات الموسيقى الهادئة. كانت أعمدةُ البخارِ المتصاعد من القهوة قد بدأت بالتناقص تدريجيا، دالًّا على بدء فقدانها لحرارتها.

- سارة .. أنا أعلم أني مُخطئ، ومُخطئ جداً أيضا، لكني لا أعلم كيف فعلت ذلك، لا يمكن لي أن أشرح لك ما أشعر به الآن.

كانت سارة تحدق في القهوة، وتُنصتُ لأنفاسه المتدفقة عبر كلماته.

- سارة، أعرف أني قد خذلتك مرتين، لكن الأمر خارج عن إرادتي.

وضع جمال يديه فوق الطاولة متشابكتين، وقرّب فمه نحو وجه سارة وهمس لها:

- سارة أنا أخاف عليك.

رفعت سارة بصرَها نحوه لأول مرة مذ دخلا المقهى.....

- تخاف علي! ممن ؟

- سارة أرجوك افهميني، أنا أخاف عليك من نفسي.

- جمال من فضلك لا تتحدث بالألغاز. قل لي ما تود قوله صراحة، لا تجعلني أقلق أكثر من ذلك.

- لا أعلم كيف أقولها لك، اسمعي سارة، أنا رجلٌ منفتحٌ جدا ربما يصعب عليك مجاراتي فيما بعد. أنا لا أنتمي إلا لنفسي وللإنسانية عندما يتعلقُ الأمر بالإخلاص والولاء. سارة أنا أكره التعصّبَ مهما صَغُر حجمه، التعصبُ يُحجِّم العقلَ ويجعله صغيراً. الحياةُ سارة في أمريكا ليس فيها انتماءات، طبعا أنا لا أتحدث بالمطلق، فلا يزال البيض هناك ينظرون إلى السود بعين الازدراء، ولا يزال للسود مناطقهم الخاصة التي يعيشون فيها، لكني أتحدث على الأقل عن بوسطن، المدينةُ التي ستجمعنا تحت سمائه. سارة سأوضح لك أكثر، البارحة جاءني إحساسٌ غريبٌ أن نزعةَ التعصبِ في ازديادٍ لديك، أشعرُ أنه من الصعبِ عليك ترك هذه البلاد إلى بلاد أخرى، يصعب عليك تقبل أي تغيير، تخافين سارة، تخافين فَقد بلدك، دينك، حجابك، أرضك، جامعتك، تخافين سارة من التغيير، أنا أعرف ذلك

جيدا وأتفهمه، ربما كان لفقدانك والديك في سن مبكرة أثره الكبير، ولمحيطك الذي تعيشين أثره الأكبر، كلّ ذلك، أقل أهمية لدي مما أخشاه، سارة أنا أخاف عليك، أنت لا تتقبلين الاختلاف وأخاف أن لا تتقبليني.

اختصر جمال حديثه بكلمتي منفتح، وتخافين التغيير. تجرعتها سارة مرة واحدة كقهوتها التي احتستها باردة. وقفت عند جملته الأخيرة كمن يقف في مأتمٍ لميتٍ لا يعرفه، إلا أن فكرة الموت وحدها كانت كافيةً لابتلاع الألم.

كان خوفُ جمال من اختلاف أفكارهما وثقافاتهما المجتمعية الحلقةَ المفقودة في جسرِ النجاة الواصل إلى الارتباط، وهذا ما كانت سارة على الدوام تخشى- التوغل فيه. كانت كلمات جمال كفيلة بفك الشيفرة الخاصة بالخطوة الأولى نحو الحب، كانت كحدِّ السيف أتى على المستور الذي لا تود سارة كشفه.

حاولت سارة تبرير ما يحدث، لكن الكلمات لم تُسعفها، فكرت كثيراً قبل أن تجد الرد الكافي على حديث اعتبرته في مُجمله اتهامات لا معنى لها، لكن شيئاً ما قد ربط على لسانها ، فكرها، واستأذنت للانصراف بحجة الإرهاق.

***

نهاية الخريف الأول

قضت سارةُ ليلةً أخرى على فراشِ القلق غير مستعدة لتقديم أي من التنازلات التي حاول جمال فرضها عليها أثناء حوارٍ دار بينهما لَفَّهُ الصمتُ لأكثرِ من نصفه.

كانت المواجهةُ الأولى التي ارتأى جمال أن تكون بداية للقاء أو نهاية لصراع، مواجهةً سافرة حتى من شروطٍ لا بد وأن تتوافر في دائرة النقاش. أخطاءَ عندما حاول أن يخط نهاية لحب لم يقم في أساسه إلا على الاختلاف.

كان على كليهما التفكير بجد، بعيداً عن ما يكمن في صدريهما من مشاعر لا يستطيعان معها سوى التحليق إلى عالم آخر من الحرية.

غفت سارة قبالة الفجر بين ذراعي والدها الذي أتاها بابتسامةٍ مُتعبة، وبنظرات تائهة، مصطنعة الفرح. كانت ساره ترتفع بأحلامها نحو فجرٍ تتمناه، بينما كانت الشمس تحبو نحو السماء معلنة عن بدء يوم جديد. فسماءُ الأحلامِ واسعةٌ ممتدةٌ، والأحلامُ فيها متسارعة في طبقات ملونة لا تنتهي إلا بفنائها. غفت سارة صريعة الأفكار الثقيلة في يومٍ خريفي مُلبدٍ بالغيوم لا يُسمع منه إلا حفيف الأوراق. أما أفكار جمال فراحت تطفو عبر مياه المحيط بعد أن انتزع عنها ثقلها تدريجيا وأزاح الستار عن بعض ما يغطيها فأصبحت خفيفة وعارية لا تحتاج إلى تفسير. قضى ليلته فارغ العينين من النوم، مستلقٍ على فراشٍ فارغ ينتظر أجوبة من سارة لأسئلةٍ لم يطرحها وإنما أشار إليها بايماءات استباحت فهمها واستدعت إجابتها.

عاد جمال ووالداه أدراجهم بعد زيارة خاطفة استمرت أسبوعا إلى بلاد ما خلف المحيط، لكنهم عادوا دون أن يفتعلوا الضجيج ودون تملق الفلاحين ودون مراسم الوداع. كان وداعاً مفاجئاً محصوراً على السيدة صفاء ومشروطاً. أما سارة فاكتفت بمقدارِ بقعة ضوء من وراء الستائر تُخرج منها عينيها لتُلقي بها التحية على المسافرين من خلال ضباب الحزن الذي اكتنفهما.

كان وداعا باردا ثقيلا منزوع الشهية حيال الحياة، عارٍ من الحنين تجاه الوطن، سافر كعروق أشجار التين الجرداء، في يومٍ ملبدٍ بالغيوم بدا وكأنه متباهيا بالنصر- ومعطرا بأنفاس الوداع، مستسلما لمستقبلٍ ينتظر إجابات وباقٍ على عهود لا شك وأنها قد قُطعت يوماً ما.

بعد سفر طويل، وصل جمال وعائلته إلى بوسطن، كانوا جميعاً مُرهقين مُتعبين من الساعات الطويلة التي قضوها فوق المحيط. كان سفراً مباشراً استمر لمدة أربعة عشر- ساعة، لا محطات انتظار فيه ولا وقوف إلا في نيويورك. عاد الجميعُ إلى العملِ والانغماسِ في حياةٍ رتيبةٍ منظمةٍ بدءاً من الاستيقاظ باكراً وانتهاءً بالفراش حيث يكون النوم سلة للأوجاعِ والمتاعب.

قبل ذلك، بعد أن أقلعت الطائرةُ من مطار عمان الدولي، وغاصت بين الغيوم البيضاء، كان الجميع قد اعتدلوا في مقاعدهم، عندها، أخذ أبو جمال نفسا عميقا ثم استدار بوجه نحو ز وجته فوجدها نائمة، قرّب رأسه ببطء نحو رأس ابنه الجالس بمحاذاته، كأنه يريد الحديث عن شيء لا يود لأحد سماعه. كان جمال يتكئ مستخدما ذراعه فوق القطعة المستطيلة التي تقع إلى جانبه.

- نعم أبي هل تود قول شيء.
- جمال بُني، أعلم ما تشعر به الآن، لكني لا أعرف كيف حدث ذلك معكما. أنا أدرك تماماً حجم الألم الذي تشعر به، تباً للألم، إنه مُزعج، ما إن يستسلم له المرء حتى يفتك به. وليس أشد ألماً على العاشق من ألم الفراق، ذلك الشرخ الذي يخلفه وراءه، إنه مؤلم، مؤلم جدا. كنت قد أحسست به في مرحلةٍ ما من عمري، لكني تعافيت سريعاً، عندما تُقنع

عقلك أن ما يُريده قلبك شيء مستحيل، ينتهي الأمر. أعلم أنه ليس بهذه السهولة التي أتحدث عنها. لكن العضو الذي لا تستخدمه، قد يُضمر بمضي الوقت، نعم بني، نعم، لا تستغرب ما أقوله لك، فللقلب وظائف أخرى غير ضخ الدم، القلب مصدر العاطفة، والعاطفة المنشقة عن القلب، تُضمر إن توقف استخدامها. لكني لا أريد لك أن تكررني. الحبّ يستحق العناءَ، به فقط تستطيع التحليق إلى مكان بعيد.

بني، كنت قد شعرت بالضيق الذي اعتراك لحظة هبوطنا هناك في البلاد. أنا أراقبك جيداً معظم الوقت، لكن الحب لا علاقة له بذلك الضيق، إن كنت تريد لقلبك أن لا يُضمر فاركض وراء الحب، اركض والهث ولا تعبأ بالاختلاف. كلّ شيء يوماً ما، سيصير عادياً، وستتنحى كلّ الاختلافات أمام القوة العظمى. ثم لا تنسَ أن سارة بحاجة إلى الحب أكثر منك. لا تنسَ الفجوة العاطفية التي خلفها غياب والدها، سارة لم تحظَ بالحب كما يجب، والطبيعي أن تتوجه عاطفتها نحو أشياء أخرى.

جمال الذي بقي يستمع في ذهول، لم يصدق أن لدى والده القدرة على الحديث في شأن الحب.

- أبي، أنا أخطأت، كنت أودُّ الاعتذار، وبدلاً من ذلك زدت الأمر سوءاً، لم أحسن التصرف مع امرأة أكثر ما يميزها نقاءها، وبدلاً من أتفهم ظروفاً ومحيطاً يعرقلان طريقنا، كنت أنا عونا عليها في الرجوع إلى الوراء.

وضع السيد أبو جمال يده فوق ركبة ابنه وشد عليها بقوة قائلاً:

- كلّ شيء سيَحل، وستكونان على ما يرام، أثق بك وبقدرتك على إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح.

أرجع جمال ظهره إلى الخلف، وأسند رأسه على المقعد، ثم أغمض عينيه، وغط في التفكير.

انقضى أسبوعان على مغادرة جمال وعائلته البلاد. عاد الجميع إلى شؤونهم. أبو جمال وزوجته إلى مطاعمهم، وجمال إلى عمله الذي كان فيه وسيطاً بين شركة تصنع البرمجيات، وشركات أخرى تستخدمها. كان عمل جمال يقتضي السفر دائماً، وهنا تكمن صعوبته، كان دائم الترحال، ليل نهار، في أي وقت، وعليه أن يكون جاهزاً كلّما طُلب منه ذلك.

لم يكن جمال على موعد لاستقبال رسالة بعد يوم شاق ومضن، فلم يكن يومه غير عادي، طالما تطلب الأمر السفر من مدينة لأخرى، في طريق العودة أحس بوهن في مفاصله، أنهكته الطريق المزدحمة، فضّل أن يُنهي يومه في أحد الفنادق المنتشرة في كلّ مكان إلا أنه تراجع رغبةً منه في البقاء وحيداً في منزله، خاصة بعد سفر والديه إلى شيكاغو لتفقد بعض الأمور هناك.

وصل متأخرا بعد منتصف الليل. شيءٌ ما حدّثه أن يفتح صندوق بريده. وجد فيه رسالة، عندما فض الغلاف، عرف أنها من سارة.

حدث جمال نفسه كثيرا، عن مضمون الرسالة قبل أن يفتحها وعن ما قد تحتويه من كلمات ولماذا اختارت أن تكون ورقية رغم أن الإنترنت قد اختصر المسافات والوقت. احتضنها بشوق الغريب لوطنٍ يحبه، بدأ بقراءتها مُستلقياً على أريكته الحمراء المخملية، حدق بداية في الكلمات، ثم بدأ يتحسسها كأنه يلمس أصابع حبيبته عبر حروفها الملونة، امتلأت عينيه بالبكاء ثم أغمضهما منهكا.

***

جمال:

لطالما افترقنا وفي جعبتنا أحاديثٌ ممزقة ومبعثرة، أشعر بالكلماتِ تذوب، تتوارى، تختفي، وتعود متألقة من جديد. أحاديثنا عن السعادة والحزن لا تنتهي، تأتي من غياهب الجب وتعود إليها.

جمال .. كم كان يروق لي الحديث معك عن الحزن، وكم كان يروق لك الحديث عن السعادة. أنا أرى أن للحزن سعادة ترتبط به منذ أزله، وأنت ترى أن السعادة هي السعادة كما أن الحزن هو الحزن ولا يمكن لهما أن يتداخلا، وأن السعادة يجب أن تدوم أكثر لنستمتع بها أكثر. فالوقت مهمٌ في كليهما، مدة الحزن ومدى السعادة. وأنا أرى أنهما سيان في دائرة الزمن المنقضي يوما بعد يوم.

جمال، كنا قد بدأنا وقد بدأ الحب باتخاذ قلبينا مسكناً له، جارفاً في طريقه كلّ شيء قد يُعيق تقدمه أو يحمله على التوقف قسراً. لكن المصارحات المبهمة قد تشكل جدارا صلبا يصعب على الحب تسلقه أو اجتيازه مهما بلغ تياره من شده حتى يصير الوصول إلى الضفة الأخرى حلماً منوطاً بوعورة بالطريق.

جمال ..

أنا لا أعلم صيغة لمخاطبتك فيها غير اسمك أما ما اضطرب به القلب وخفق له من صيغ، لا القلم ولا الريشة قادرة على صياغته في معجم لا متناهي المفردات والأحجيات.

أكتب إليك جمال بالطريقة التي أحببت منذ زمن، طريقة تقليدية أكل الدهر عليها وشرب. ليس لأنني لا أعترف بفضل التكنولوجيا على وسائل الاتصال، بل لأني أرى إن السرعة التي اجتاحت تلك الوسائل قد حدّت من التفكير لدى المُرسل والمُتلقي فلم

يعودا يمتلكان الوقت والصبر الكافيين لصياغة مشاعرهما بصيغتها التي تجب. فصارت الردود والرسائل نتاج مشاعر مؤقتة تنضب بسرعة مجيئها وتتلاشى بكبسة زر "الديليت" إلى أن غدا الزر والضغط عليه كفيلاً بمحو كلّ شيء من ذاكرةِ الهاتفِ وذاكرةِ البشر.

جمال ..

ربما تستدل من حديثي ومن طريقتي في إرسال الرسالة على كلماتك التي رميت بها، صفعة على وجهي دون أن تلقي بالاً لما قد تصنع هذه الكلمة من ألم أو ما قد تُكسبني إياه من قوة.

لكني أؤكد لك أني لا أهاب الاختلاف، بقدر ما أخاف فقدان الأشياء التي أحبها وأتعلق بها، هناك خصلة تزرع فينا منذ الولادة، التكرار والتكرار، نحن نكرر أنفسنا كلّ يوم، في كلّ زمن، في كلّ مكان وفي كلّ جيل. لكني أحاول جاهدة التحرر دون المساس بمفاهيمٍ قد ترعرعتُ على حبها ولا يمكن لي مواصلة العيش من دونها.

لقد تساءلت كثيراً عن الضير في كوني قديمة أمارس طقوسا بالية لا تتناسب وحضارتك الأمريكية طالما أني انتهج ديناً جاء ليناسب كل زمان ومكان فلا يتخالف مع الحضارة ولا يميز بين قديم وجديد إلا بتقوى تعمر القلوب وعمل يطهر الجوارح.

لم أنتبه جمال يوماً ما إن كان في حجابي شيء يدل على قدمي أو حداثتي طالما أن قلبي يُملي عليّ بارتدائه وأنا أثق تماما أن قلبي لا يملي عليّ إلا بما هو بر. أعرف تماماً أفكارَ الحركاتِ التنويرية التي تطالب بحرية المرأة منذ منتصف القرن الماضي وأعرف تماماً الفتاوى الصادرة بإسم رجالات دين عن عدم وجوب الحجاب، لكني ومع ذلك

أرتديه مقتنعة راضية غير آبهة بعادات القرويين وممارساتهم، وليس خوفا من مخالفتهم.

جمال...

فكرت ملياً بحوارك الشائك المتعجرف على الرغم من قلبك الذي يقطر ندىً، فوجدت أن القسوة لا تليق بك ولا التخايل. وأن عباراتك التي نحتها في سطور لتجمعها، كانت منعطفاً حاداً ومهما في طريق طويل وممتد، والآن أصبح الاستمرار فيه وهما. اختزلت أحاديث الحبِّ ومشاريع الزواج وكل كلمات العالم إلى كلمتين اثنتين: "أخاف عليك".

كأنهما الحرب والسلام، نكون أو لا نكون، الحب أو اللاحب وأوجبت علي الاختيار بين أن أكون متعصبة لا أقبل الاختلاف أو أن أسبح برفقتك فوق المحيط رامية بأشلاء ديني عرض الماء الهادر سائرة على نهج الضياع واللاهوية.

لكن الحب عندما يغزو القلب، لا يمكن إلا أن نُذعن لإرادته، يأتيك طوعاً، خياراً وحيداً للقلبِ المفعمِ بالصدق، دليلاً للرؤى الحالمة ومنارةً للتائهِ في طرقات الحياة. يأتيك فجأة ، وعلى حين غرة. لا يُعطي موعداً ولا يسبقه إنذار، كما القضاء السريع يخترق أحشاءك رغم أنفك. يأتيك مثل وهج تُنيرُ به عتمة قلبك، أو مثل نار توقدك وتحرقك. وأنا أريد منك نورا ولا أحتمل فيك نارا.

فلا إرادة أقوى من إرادة الحب إلا إرادة الموت. فبالموت فقط تنفصل الأرواح وتتوارى الأجساد وتموت حتماً الذاكرة.

فإن كان لا بد من خيار.. فأختار نفسي على كونها قديمة متمسكة بحجاب، آملة أن أجتاز المحيطَ قابضة على عقيدتي حتى وإن كان في قبضتي جمر ملتهب فإني أحتسبه عند خالقي أجرا.

سارة

***

قضى جمال ما تبقى من دقائق قبيل الفجر متسمراً على أريكته مُمسكاً بأوراق الرسالة كذنبٍ تعذر مع شدته الغفران. كان يعلم تماماً أن الأوراق التي يُسقطها الخريف لا يمكن لها أن تعود إلى الحياة من جديد، وأن تطايرها عبر الأفنية في كلّ مكان هي الرمق الأخير لها قبل أن يغسلها المطر ويدفنها بلا أكفان في قعر الأرض. والأوراق التي تربطه بسارة كانت أوراق متساقطة لا يريد لها نهاية كنهاية أوراق الخريف.

أصابت جسده رعدة مع أول خيوط الفجر، انتفضت معها كلّ حواسه، رافقتها حمى أطاحت بقوته وأنهت باقي يومه بالفراش صريعاً للمرض، منقاداً بأفكاره حيث اللاشيء. لم يقوَ جمال على متابعة دوامه في اليوم التالي، جهز نفسه على مضض، وصل مكان العمل عند الثامنة. حاول الاطلاع على جدول الأعمال عندما جاءت به السكرتيرة وقد لمحت الشحوب تحت عينيه وعندما بادرته بالسؤال انهار مكباً على وجهه لم يفق إلا على صوت أحد أصدقائه الذي حاول إفاقته من إغماءته.

عاش مع عذاب أرّقه بضعة أيام إلى أن استدل بمساعدة أحد أصدقائه على مُهدّئ استطاع معه أن يُفضي إلى النوم بهمومه ويستمر في حياة شبه طبيعية يشوبها الصراع الداخلي الذي ما برح ينفك عنه حتى وهو في أفضل حالاته. إلى أن جاء اليوم

الذي قرر معه أن يُنهي معاناته، فجلس أمام مكتبه يخط الورقة تلو الأخرى ثم يقوم بتمزيقها حتى علت روحه وطفت مع أنسام الحب فانحنى القلم وأذعن أمام رغبته وخطّ بما لم يكتب بحياته مثله قط، وكأن وحياً بات يلقنه حتى شهق مع أخر حروف مخطوطه أ نفاس المثكل بالحب وانكفأ مرة أخرى فوق منضدته، معلناً استسلامه أمام قدرٍ لا يُمكن أن يُنهي حباً لا زالت قلوباً تخفق به.

***

عزيزتي سارة:

لا أعلم متى سيأتي اليوم الذي أخاطبك به (حبيبتي) دون أي قيد ودون أن ينتابني الخوف من ردودِ أفعالك التي عجزت عن التكهن بها مع أول لقاء بيننا منذ أعوام، والذي وددت من خلاله أن أنثر حب فاض به قلبي و أرهق به سائر جسدي. متى سأهمس في أذنك بما يختلج به صدري دون أن يعتريك الشعور بالذنب أو أن تنتابك الهواجس عن إثمٍ ربطته بكلمة ملؤها الطهر والعفة.

كنت قد وددت معانقتك، لا لشيء، فقط لأهمس في أذنك كم اشتقت إليك، لكنك امتنعت وهربت خوفاً من إثم قد يلحق بك.

أي إثمٍ هذا الذي تتحدثين عنه عندما تتلامس أرواح المحبين وتنتشي بتلاق وتناغم غريب لم أعهده ولم ألمسه إلا معك ..

تلامست أرواحنا في الأحلام وفي الواقع المكتظ بالحكايات القديمة..

سارة:

كم أود الحديث معك بالطريقة التي أحب، أن أنفخ في صدرك من روحي، أن أنسيكِ عادات وتقاليد شاخت وهرمت ولا زلت تتشبثين بها وتذكريني بها عند كلّ محاولة للاقتراب منك أكثر فأكثر..

سارة :

لم أجد غير تلك الكلمات التي بادرتُ بالحديث بها، دون علم مني أنها ستاخذ ما أخذت من قلبك وإحساسك المرهف، لذا توجب علي أن أعتذر، وأعتذر بشدة وألتمس منك الصفح على ذنب اقترفته في لحظة غباء مني وأعترف.

أما ما يُمليه عليك قلبك من بر، فإني أحترمه وليس لي أن أعترض على حرية يُفترض أني قد تربيت عليها في بلدٍ دائم المناداة بالحريات والديمقراطية.

سارة....

ها أنا ذا جمال.. عندما أكتب إليك أصير شاعراً مثل السياب.. وفيلسوفاً مثل أرسطو وشفافاً كقدح من الزجاج مليء بالماء النقي العذب الطاهر..

أكتب إليك الآن باللغة التي تحبين وبالطريقة التي تهوين بعيداً عن التكنولوجيا كما أردت. هذه اللغة التي عشقتُها من أجلك وتعلقتُ بها لتعلق روحك بها وتوغلك بها كتوغل السائح في عمقِ صحراءٍ واسعة. أودُّ أن أمنحك في هذه الساعة بعضا من كلماتها كما منح نزار قباني ليلته وأن أُشبع قلبك بعض من تأملاتها وصورها الفنية كما أعطى واسيني الأعرج مريمته الورقية.. أود أن أتغزل بوجهك وقامتك كما فعل الشعراء مع القمر.. أن أرسم وجهك قرصاً نقياً صافياً كما وصف العشاق المطر.. أن أمنحك بعضاً من حبي بالطريقة التي أحب لكنك تستكثرين علي ذلك، تقبلين بي حبيبا ولا تريدينني أن أفصح وأخرج قليلاً من ما يختبئ وراء كواليس قلبي المُجهد

بسنوات انتظارك.. تتمسكين بقيَمٍ لا أعلم مدى صحتها، تخافين من واقع سخيف يعيب على قلبينا التطهر بأسمى ما أوجده الله للبشر.. إنه طهر الحب. ...وهل أطهر من الحب لغة بين المحبين؟؟.

في هذه الساعة من الفجر الذي يفتقد ابتسامتك ووجهك المشرق لا أملك إلا أن ألقي عليك تحية الصباح محملة بكل ما حبا الله من أشواق للمحببين المنتظرين أحباءهم في كلّ رقعة من هذا الكون الواسع..

صباحك سعيد حبيبتي سارة.. وليسعد قلبك بالحياة.

جمال

***

انقضى الخريف كما جاء ذاهباً بأوراقه إلى حيث يكون الشتاء بارداً. كانت حباتُ المطرِ تتأرجح فوق الأغصان متراقصة ضاربة بعرض الحائط درجات الحرارة المنخفضة. كلما حل الشتاءَ حلت معه القسوة التي لا يزال مخاضها ينضح بالألم.

الشتاء لا يرحم أبداً. يأتي على كلّ إحساسٍ بالدفء والأمان. عندما يبدأ هطول المطر في كانون يتوجس الجميع خيفة، يعقدون مصالحة مع ذواتهم وآلهتهم. يعدون العدة والعتاد لمواجهة البرد القارص الذي يرافقه الكثير من المرض والجوع والعجز. ناهيك عن الملل والإحساس المشبع بالوحدة.

يُجهز البردُ الشديد على كلّ شيء، على الجيوب، على الأحلام والابتسامات. يملأ قلوبَ الجميع خيبة وصمت. يُصغي الجميع لوقع المطر على النوافذ وأسطح المنازل منتظرين انتهاءه بفارغٍ من الصبر.

لا يليق المطر كثيرا ببلدة السعادة، تأتي المياه من أعلى ثم تأخذ بالجريان في منحدراتٍ ضيقةٍ وكثيرة. تتدفق من الأماكن المرتفعة ضمن نطاق ضيق وتبدأ بالتوسع أكثر كلما نزلت إلى الأسفل. تتجمع تدريجا وتعود بتدافع أكثر فتكون أشبه ما يكون بمنطقة شلالات. تمتص الأرض ما استطاعت منها للتخفيف من العبء الذي ينتظر الوادي ثم تحاول جاهدةً ابتلاعها إلى أن تغرق فيه لتشارك أبنائها المعاناة.

المطرُ في القريةِ يعني الشقاء والوحل والطين. لا تكاد بقعة من أرضها تخلو من بقايا الطين والماء والبرك الطبيعية التي صنعها المطر. لا بنية تحتية ولا فوقية. المطر والمطر فقط من يبني ويصنع. عندما يأتي المطر يأتي الكسل والشرود والغضب. يتعطل كلّ شي في القرية مع قدوم المطر، تعبث المياه بما يعرقل طريقها فتأتي على كلّ الأحلام والتأملات. ضجيجه الهادر يجرف ما استطاع إلى أسفل منتهياً عند القعر حيث تتجمع الخيبات والنبوءات التي تقف جنباً إلى جنب مع كلّ مخلفات القرية من الأتربة والحجارة وجثث الحيوانات.

لكن سارة تختلف عن أبناء قريتها بنظرتها للمطر، كما أنها تختلف معهم في كثير من الأشياء. ربما لأنها لم تشقَ بالمطر مثلهم، أو لأن الشتاء في بيتها أكثر دفئاً، وربما لأنها لا ترى الشلالات الهادرة إلا من الأعلى.

كانت سارة ترى المطر أنشودة فرح مزجاة بعرق الفلاحين وأناملهم. ترى في المطر علاجا للذهن والعقل ووسيلة لبلوغ السعادة الأبدية. إيحاء للحياة من جديد، دموعاً تغسل الآهات والأنات والآلام، ومرهم طبيعي من وجع الحياة. عشقها للمطر كعشق الصوفي شمس التبريزي لجلال الدين الرومي، عشق أزليّ يخالف كلّ آلام الفلاحين ومعاناتهم.

تلقت سارة رسالتها الورقية الأولى من جمال في كانون في يومٍ صامت كان المطر فيه قد توقف وانحسر. كانت رسالته معطرة بعطره و محفوراً في طياتها زهور القرنفل الأحمر. عندما أمسكت بها سارة احتضنتها كما تحتضن الأم الثكلى صورة لأحد أبنائها الذين اقتادتهم الحرب إلى حيث اللاعودة. لثمت أجزائها بحب وتنفستها بعمق حتى امتلأت رئتاها بعطره وشهقت بدموع صابر منتظر لأخبار عشيقته.

كانت تختلط ضحكاتها مع دموعها الحارة فيكتسب وجهها توردا يزيد من جمالها جمالا. غدت عيناها كجمر المدفأة المتقد في ليالي كانون الباردة، هزتها رياح الشمال المارة فوق المحيط محملة بالأشواق والحنين. ولفها صمت طغى فوق صوت أنفاسها المرتفعة وخفقات قلبها المتسارعة، وأخذت تدون تحت عنوان:

أحبه

" الحبّ لا يكون صامتاً .. خُلق لأن يكون ملتهباً.. ومتى ما خمدت ناره خمد معها إلى النهاية.

جمال حانياً جداً كسنابل القمح، أعرف ذلك، لكنه غامض كأوراق الخريف، متبدل كما الأيام، صامت كلقاء الغرباء و متكلم كشتاء كانون، متمكن صلب كصحراء. جمال غريبٌ ولغربته غبطة وغصة. مبهمٌ يتواري خلف وحدته، واثقٌ كرجولته، شهيَ كابتسامته وضحكته. يبدو شارداً أحياناً لا يُعرف حزنه من سعادته. تتبدل أحيانا سعادته بصمت مقفر وحزنه بانتشاء وغبطة. لكني أحبه ولا أريد أن أفقده.

إلهي كم أخاف الفقد، وأخشى أن تستجيب قوى الكون لمخاوفي. العلمُ والدين يؤكدان أن الإنسان باستطاعته جذب كل شيء. فلتساعدني يا إلهي على التخلص من هواجسي."

***

بعد عام انقضى لم يبرد لجمال وسارة فيه نار الحب التي أضرمت. كانا على موعد آخر معه مرة أخرى في تشرين. وكأن تشرين يصر على أن يكون مع خطواتهما الأولى نحو الحياة الجديدة. وكان يوما خريفيا آخرا وكانت رائحة الأرض وكان الخوف والقلق وكان الفلاحين وتعرقهم وتجهمهم وتملقهم، وكان الاستقبال بحفاوة .. وكان جمال يمشي بثقة يمتزج عطره الفاخر برائحة الأرض.

وكأن الزمن يعيد نفسه من جديد عابثاً بقلوبٍ أشبعت ألماً.

لكن القدر تختلف طرائقه باختلاف الوقت والزمان.كان يوماً صافياً لا غيوم فيه ولا أمطار عندما تقدم جمال ووالده فقط هذه المرة من السيدة صفاء رسمياً بطلب سارة إلى الزواج. تمت قراءة الفاتحة كما هي العادة عند العرب على النية التوفيق وهي التصريحُ المباشر بالموافقة والقبول فتكون الفاتحة لإحلال البركة على عقد قران قريب.

اتفق السيد أبو جمال والسيدة صفاء على كلّ ما يخص الخطبة من مهرٍ مؤجل ومعجل وعلى تفاصيل الحفلة التي ستُقام في منزل العروس. أما جمال وسارة فراح صمتهما يأخذهما إلى حيث الليالي الدافئة إلى حيث الأحلام والحب.

السيدة أم جمال أعلنت عن عدم رغبتها في حضور حفل القران الذي كانت تعتبره غير مُتكافئ لأن بنت القرية لا تليق بابنها الأمريكي. لكن ذلك لم يغير شيئا. إذ أن السيد أبو جمال كان على قدرٍ كافٍ من الصرامة كي يجعلها تكتفي بالاعتذارِ عن القدومِ فقط، ملتزماً بوصية شقيقه الذي رحل منذ أعوام.

– أسبوعان كافيان لتجهيز كلّ شيء.

قالت السيدة صفاء موجهة كلامها إلى العروسين.

- ماذا تقولين؟ لا عمتي هذا كثير. إجازتي كلها لا تتجاوز الثلاثة أسابيع. لا أريد أن أقضيها فقط في تجهيزات الحفل. قولي شيئا سارة أرجوك.
- ماذا أقول جمال؟ ربما كانت عمتي أعرف مني بكل هذه التفاصيل. ردت سارة بخجل.
- لا تقلق جمال سنحاول أن نكمل في وقت أقل.

وفت السيدة صفاء بوعودها أمام جمال وأنهت ترتيبات الحفل في ثمانية أيام.

كان الحفل قد أعد له بإتقان:

نُصب بيت الشعر في المكانِ المناسب في حديقةِ منزل السيد أبي جمال وأُضيئ من الداخل بكشافات الكهرباء، وأحبال الزينة الكهربائية والأعلام. واصطفت الكراسي الحمراء ذات الأرجل الحديدية في صفوفٍ منتظمةٍ فوق السجاد الأحمر المنقط. عُطر المكانُ برائحةِ القهوةِ العربية الممزوجة بحب الهيل. كان المنزلُ ينضح بفرحٍ عربي نُظم بطريقةٍ أردنيةٍ أصيلةٍ. بدأ المدعوون بالتوافد إلى بيت الشعر وسط تراكض الأطفال يتقدمهم السيد أبو جمال لاستقبال الضيوف من الرجال.

في المنزل، احتشدت النساء داخل الصالة المعدة للضيوف، بعد أن أفرغت تماما من محتوياتها وزُيّن السقف بالأوراق الملونة والأعلام تعبيراً عن انتماءٍ لا يسكن الكثيرون. رُفع كرسيان أبيضان مصنوعان من القشِّ الأبيضِ فوق لوحٍ خشبي كبير، وعُلقت عن يمينه وشماله باقات الورد الجوري ثم لُفت القاعة بالمقاعد الحمراء، في حين بقي وسطها فارغاً لمشاركة العروسين الرقص وأداء رقصات تقليدية ودبكات أردنية.

كان الفرحُ حليفا للحب وأداةً للتملق وعنواناً للندم. يأتي الفرحُ بأشكال متعددة ويظهر على هيئة نظرات عتاب أو ابتسامات متوردة أو دموع شابتها الذكرى.

كان الفرحُ يلمع بأعين الكثيرين كلن حسب طريقة انغماسه فيه وتوحده معه. يُرى الفرحُ من كلّ الزوايا حتى من زاوية الحزن. للفرح مكان في كلّ زمان و مكان وكل رُكنٍ إن أريد له أن يبقى ويظهر. قد يكون الفرح حيث يكون الألم من أجل الآخرين، يكون عندما تكون دموع اللقاء بعد الغربة والحنين، يكون حين يُكلَّل العرق بالصحو والحرية. يكون الفرحُ فرحاً إن قُدِّر له أن يكون في خضم الواقع وإن تعفن بالخيبات واستفحل بالظلام. والفرحُ في أواخر تشرين كان عناقاً وقبلات وأحضان تملأ قاعة النساء وخيمة الرجال. فرحٌ أصاب قلوباً عطشى- وذكريات نُسيت وطفولة أتاحت للأطفال الاستحمام بالمشروبات الغازية والتزين بأطباق الحلوى.

كان للفرح نصيبه أيضا من قلب السيدة صفاء التي اهتمت بكل شيء بصرامة وبثقة بنت البلد التي تعتني بالعادات والتقاليد، لتُخرج حفل عقد القران بصورةٍ مُرضية تُوقف بها ألسنة الفلاحين التي لا تتوقف عن الثرثرة مهما بلغ الحدث من فخامة. أتاحت لنفسها فرصة أن تكون أماً للمرة الأولى وولية الأمر التي لا تقوم لأبنائها قائمة إلا بمشورتها. عملت بجد خلال ثمانية أيام على استئجار بيت الشعر ومكبرات الصوت التي ستصدح بالحفل و انتقاء الكراسي للمدعوين وتزيين الكوشة للعروسين و توظيف صديقتها المقربة من المدينة في اختيار صالون تجميل لإظهار العروس في أفضل صورة وشراء فستان الخطوبة وطقم الحلي للعروس وطقماً رسمياً يليق بالعريس، والمرور على محلات الحلويات لاختيار الكنافة النابلسية التي ستُصنع وتُقدم في الحفلِ في ذات الوقت.

كانت السيدةُ صفاء تتمتع بشخصيةٍ قويةٍ لا مجال معها للجدال أو المراوغة أو التأخير. تُعطي الأمورَ حقها وتزيد عليها رغبةً في اختيار الأفضل. حازمة، لا تسمح للتهاون أن يطرق بابها. تأخذ على عاتقها تولي المهام الصعبة لأنها ترى أن الإدارة واتخاذ القرارات تليق بها. طغى على ملامحها عنفوان ما وراء المحيط. تُصدر الأوامر إن تطلَّب ذلك وتتكلم بطبقيةٍ مع الفلاحين رغم وساعة صدرها وطيب معشرها.

كانت السيدة صفاء على وشك أن تُصدر أوامرها لصانع الحلوى ببدء وضع آنية "الكنافة" الكبيرة على المواقد قبل وصول العروسين ليتمكن الجميع من تناولها دافئة عندما نبهتا ذاكرتها بأيام خلت، ذهب الفرحُ والحبّ فيها إلى حيث اللاعودة . تذكرت نفسها حين سبقها الزمن وأضحت وحيدة عندما فضلت عدم الارتباط بمن تحب لأن عمله يتوجب عليه السفر إلى الصحراء وستضطر إلى السفر معه آنذاك. فاتها قطار الفتيات الذي يقلهن نحو السعادة والحب، إلى أن اضطرت للحاق بهن عبر وسيلة نقل قديمة وبائسة آخذة بعين الاعتبار قول متداول كثيراً "أن تصل متأخرا أفضل من لا تصل أبدا"، حتى وصلت ليس فقط متأخرة وإنما متوعكة مستسلمة عبر محيط انتزع منها الحب والسعادة ومنحها القوة.

أما العروسان اللذان كانا على موعد مع صالون التجميل بقسمي الرجال والسيدات، قد أنهيا للتو هم التزيّن. كان جمال بانتظار سارة خارجا، يرقبها بنظرات الحب، يحدق بخطواتها مبتسماً وهي ترتدي عباءة من الستان بلون ورود الربيع، فضفاضة تغطيها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها. تقدم جمال نحوها بسرعة ممسكاً بذراعها مانعاً إياها من السقوط اثر تعثرها. كان وابلاً من المطر بداء ينهمر بصورة مفاجئة وسريعة.

كانت عباءتها تخفي جمالاً فاتناً تاقت روح جمال لرؤيته في يوم يتكلل توقه فيه إلى لقاء حميم. أخذ المطر حقه منها فابتلت وارتشح غطاء رأسها بالماء. في ثوانٍ كادت أن تُنهي فيها كلّ عمل أخصائية التجميل والشعر. لكن حب سارة للمطر حال دون توترها وتذمرها في يوم رأت فيه يوم ميلادها من جديد. تحب سارة المطر، ترى أنه من الحماقة حمل مظلة في يوم يُتيح الله للإنسان فيه فرصة استنشاق عبق الحياة مع كلّ رذاذ وكل قطرة. عندما دخلت سارة السيارة انفجر جمال بالضحك مقهقرا:

- أصبح شكلك مثل المهر ج، انزعي عباءتك لو سمحت، أفضّل أن لا تأخذي قسطا من البرد.
- لكني مرتاحة هكذا.
- افتتت... قالها جمال وهو يُخرج زفيرا من فمه، ثم تابع:

لا تكوني عنيدة سارة استمعي إلي أرجوك، سيتسرب الماء إلى الداخل، لن تكون بخير.

خلعت عباءتها المبتلة على مضض، وبقيت على جاكيت قصير غطى ذراعيها ورأسها فتكشف جزء من مقدمة صدرها. تدارك جمال ارتباكها ونزع معطفه الأسود وأسدله فوق ظهرها وأحاطها به.

قبل أن يصل المساء، وصل جمال وسارة إلى القرية التي بدت ساكنة سكون الأموات في اللحود، وكان المطر قد توقف منذ لحظات.

تعرف سارة جيدا أن سكون القرية في يومٍ سيعم فيه الفرح، يعني أن هناك حدث جلل قد ألمَّ بها. ظهر كلّ شيء متسمراً في مكانه، منفراً مليئاً بالخوف. علق بأنف سارة رائحة وشت لها بموت قريب، عبثت بسعادتها وكدَّرت صفوها. ابتلعت سارة مخاوفها

حتى شارفا على الاقتراب. كانت الأصوات تتعالى كلما اقتربا أكثر من المنزل، وبدأت الوجوه بالظهور عابسة متجهمة خائفة تنظر وتضرب الكف فوق الكف. ثم سمعا أصوات نحيب قادمة من نافذة منزل والد سارة الذي كان ينبغي له أن يصدح بالموسيقى والأغاني الشعبية.كانت الأصوات تتداخل أكثر فأكثر كلّما اقتربا. بدا وكأن شبح الظلام يسابقهما ليأخذ مكانه قبلهما. لم تنسَ سارة فيما بعد رائحة الموتِ التي غزت كلّ ركن وكلّ فناء، علقت بحبات المطر وأوراق الشجر المتناثرة، تدحرجت فوق الصخور، آخذة مكانها في كلّ بقعة ومنذ ذلك، اليوم أصبح المطرُ رمزاً للموت لا للحياة.

كان المطر قد انهمر لمدة أربعين دقيقة، تساقط فيه خمس الموسم المطري لذلك العام. كان وابلاً كثيفاً لم يرحم، تمكن من كلّ شيء من منتصف القرية حتى آخرها. أتى قاسياً، تراطمت حباته بنوافذ المنازل ضاربة بعرض الحائط كلّ ما ستخلفه من دمار. ماتت الخراف رُعبا قبل أن يجرفها السيل خارج وطنها، تهدمت البيوت الطينية ودخلت المياه إلى قعر البيوت المنخفضة، وعلت - بعد انتهاء العاصفة - أصوات اللعن والشتم، مرة للذات الإلهية ومرة للأيام والدهر والتهديد والوعيد بترميم البيوت والارتفاع بالمنخفض منها لاستقبال سيل جديد أو الرحيل عن هذه القرية بلا عودة. لكن ما إن ينتهي السيل حتى تنتهي معه الوعود والتهديد، ولا يتغير مع عودته شيئا.

عندما ترجَّل جمالُ وسارة من السيارة، كان كلّ شيء قد انتهى، جاءت العاصفةُ بعد منتصف النهار وكأن الطقس والحياة قد تآمرا على يوم لم يشأ له القدر أن يكون يوماً عامراً بالفرح. استجمعت السماء والريح قواها وبدأت تنفث في روح الحياة. أظلم الكون واسوّدّ، واقتلعت الريح العاتية دعامات بيت الشعر وطارت أغطيته وتناثرت محتوياتها وسط صراخ الرجال وعويل النساء ونداءات الله أكبر والاستغفار

التي راحت تُسمع من كلّ مكان. انكسرت الكشافات الكهربائية وتناثر الزجاج في كلّ مكان وهوت أشجار اللوز العارية فوق المناضد وأوعية القهوة والماء المُعُد للحفل.

عندما انطفأ غضبٌ الريح وخمدت ثورة الإمطار، كانت الشرايين التي تغذي قلب السيد أبو جمال قد توقفت وتوقف معها جسده عن العمل، وذهبت روحه بعيداً إلى السماء. صارع لثوان نوبة هلع لم يتمكن معها قلبه من الصمود. مات أبو جمال في وطنه وعلى أرض منزله وسط الصراخ والتراكض، متحديا القدر رغبته في الموت بعيداً، حيث لم تجد نفعا اختصار الزيارات والتشبث بالحياة مع قدر ولعنة من وطن ظل يحدث نفسه عنها حتى عند احتضاره" بأنها تطارده ".

قضى الجميع ليلتهم في ذهول منتظرين بزوغ النهار، يفكرون بمهام يودون انجازها أو اجتيازها. بيوتٌ منكوبة، أفنيةٌ مدمرة، وفرحة أخذها السيل برفقته إلى الوادي، وجثمان يرقد في ثلاجة الموتى في مستشفى يخلو من الأدوية، ينتظر مواراته تحت الثرى . كانت ليلة ثقيلة غاب فيها النوم وتوارى بين الأفكار، وزُجّ بالسعادة فيها بين أوراق النسيان. ليلة قضاها جمال وسارة والسيدة صفاء في حجرة ضيقة، تبادلوا فيها الصمت والحزن والحسرات، لم تخل من دموع الحب المنطفئ ودموع الحزن على الفراق. غفت أجفانهم مع أول خيوط الفجر، كلٌّ على أريكته متمنين من الله أن ما حصل لم يكن الا حلماً في إغفاءة، وليس عليهم إلا الإفاقة منه. لكن أمنياتهم لم تجد نفعاً مع واقع لا بدّ من مجاراته .

في الصباح الباكرِ، في يومِ تشريني آخر، أعيد بناء بيت الشعر، وأعيد ترتيب الكراسي والمناضد. وعادت رائحة القهوة تفوح من جديد في المكان. واستعادت السيدة

صفاء نشاط يومها المنصرم لتجهيز بيت الأجر وإظهاره بصورة تُغلق معها مرة أخرى أفواه الفلاحين. أبقت على الكراسي الحمراء وتخلصت من كرسي العروسين والورد الجوري واستبدلت ثوبها الأسود المرصع بالخرز بآخر أسود صافٍ خالٍ من المعالم.

بدأ الرجال والنساء بالتوافد، منتظرين الجثمان لإلقاء نظرة الوداع الاخيرة. عند وصول الجثمان كانت السيدة صفاء وسارة يتصدرنّ غرفة الضيوف. تعالت صيحات النادبات اللواتي اعتدن النحيب في المآتم، وارتفعت أصوات الرجال بالتكبير والتهليل يحملون النعش على أكتاف خمسة من شبابهم إلى أن أُدخل المنزل ثم خرجوا ولم يبق منهم إلا جمال وواحداً من أصدقائه.

تجمعت النساء وازدحمن في حلقة ضيقة حول النعش لتوديعه، وإلقاء حكمهن الخاص عليه والذي توارثنه عبر الأجيال، كان عمل الميت بالنسبة إليهن طوال عمره منوطاً بابتسامته وعبوسه أثناء قبض روحه. ومرهوناً بالزاوية التي سيُرى منها ذلك. وقفت السيدة صفاء عند رأس شقيقها وكذلك فعلت سارة، وردد الجميع بصوت عالٍ سورة يس، كان بعض النساء يثرثرن وبعضهن الآخر يصطنع الحزن وبعض منهن يتلو ويرتل.

أما سارة فقد أرهق جسدها كلّ ما خبأته الأيام في طياتها من مفاجآت. أصابها الفزع من أحداث جاءت على أحلامها وأودت بعمها وأطاحت بقلبها. توشحت السواد وابتل وجهها غارقاً بالدموع حال خروج الجثمان إلى مثواه الأخير. التقطت أنفاسها، متنهدة متحسرة عندما رأت جمال يتبع المشييعين صامتاً غارقاً في حزنه، وحيداً يجر أذيال الخيبة. وجلست تكتب بعد أسبوع من الحادثة:

الدينُ ليس عادة

" "كان عزاءَ مميزا."

هذه ما قالته عمتي تماما بعد انقضاء ثلاثة أيام من العزاء، كانت عمتي تتكلم بإسهاب عن الطعام والشراب والتمر الذي قُدم أثناء ذلك. تتحدث ويداها لا تتوقفان عن الحركة يميناً وشمالاً محاولة وصف التفاصيل التي اهتمت بها بدقة.

كان جمال يعبث بهاتفه، مبدياً عدم الرغبة في سماع الحديث، لكنه فجأة انتفض انتفاضة الخائف من شيء ما وصرخ بقوة:

" يكفي عمتي، يكفي. أي طعام وأي شراب هذا الذي تتحدثين عنه؟.

طعام طعام .. لم أسمع طوال ثلاثة أيام حديث عن شيء سوى الطعام، يكفي أم لا يكفي، دعانا فلان أم لم يدعنا، لذيذ أم غير لذلذ. ما مشكلتكم هنا في هذه البلد؟ أنتِ .. أنت بربك عمتي قولي لي .. هل تقيسين العزاء بكمية الطعام والشراب التي هُدرت؟ ماذا كنت تقصدين بمميز؟ كيف يكون العزاءَ مميزا برأيك، أي عادة هذه التي تبتكرونها ومن أجل من؟"

انتبهت عمتي لنبرة صوته العالية، وفضلت عدم الخوض معه في نقاش لا يُفهم إلا من خلال عادات وتقاليد لم يعرفها جمال ولم يتعايش معها. لكن جمال الذي أحس باندفاعه أسرع بالاعتذار متأسفا مُنهيا الحديث.

جمال على حق، ما يحدث في بيوت العزاء، شيءٌ مبالغٌ فيه. ناهيك عن التفاخر والتباهي بما يُقدّم من أنواع من التمر ونوعيّة أكواب المياه، وجودة الطعام، وفخامة بيوت الشعر ونوعية السجاد المفروش فيه. نعم سمعت النساء تتكلم عن ذلك في كلّ الأيام التي تلت وفاة عمي.

لكن عمتي تُحاول الوقوف في وجه الحزن لا أكثر، أعرف ذلك، تُحاول أن تطرد شبحه الذي بات يهددها بعد فقدان أخيها، وخيبة أملها في تنفيذ وصية أخيها الآخر، والحسرة التي تراها في عينيّ وعينيّ جمال كلّ لحظة.

عمتي تُحاول التخفيف عنا وعن نفسها بافتعال أحاديث عن العادات والتقاليد، أستطيع أن أشعر بما تشعر به الآن. إنها تشعر بالوحدة، تشعر أنها تتناقص يوماً بعد يوم. ولا تريد لي أن أكررها، تُريد لنا أن نتزوج في أسرع وقت، لكنه الموت، أنا الآن مُعتادةٌ عليه، لا لشيء، فقط لأن الموت أصبح عادة لدي.

كانت تتركنا وحيدين حتى نشق طريق الحب الذي أُقفل، كانت تنشغل بإعداد الطعام أو بالهاتف لتمنحنا فرصة العودة من جديد بعد أن رحل الموت.

لكني لا أوافقها في أي شيء، الموت الذي أخافه، يُحاصرني، لست مُطمئنة منه لأني لست بمأمن منه، أشعر أنه سيفتك بي أو بها أو بقلب جمال قبل أن تكتمل خطواتنا. على أي حال ذهبت جهود عمتي أدراجها سدى. طارت مع الريح عندما أعلن جمال عن قراره بالعودة إلى بوسطن. لم أتفاجئ، لم يعد يفاجئني شيء. بقيت صامتة، فلا فائدة من أي حديث. جمال تخنقه هذه البلاد أستطيع أن أعرف ذلك من خلال نظراته الضجرة، ربما لم يكن على حق فالوطن هو الوطن مهما صغر ومهما ضاق. لكن حُجته هذه المرة كانت قوية، فلديه عمله ولديه أعمال والده التي لا تستطيع والدته القيام بها مفردة.

زوجة عمي، لم تحضر مراسم الموت، ولم تقم بتوديع زوجها الوداع الأخير، قالت أنها لا تستطيع القدوم رغم أنه كان بالإمكان تأجيل الدفن يوم آخر. أستطيع أن أتكهن أنها لا تريد ذلك لا لشيء، فقط لإخفاء فرحتها بعدم إتمام الزواج، فليسامحها

الله. قد حدث ما أرادت له أن يحدث ربما وزيادة. عرفت ذلك عندما دخل جمال البارحة غرفة الجلوس بعد أن غادرت جميع النساء، كانت عمتي تسألني متى سأستأنف دراستي وأنه لا داعي لمزيد من الحزن وأنه عليّ التخرج.

كان البارحة مساءً بارداً، كنت أرتجف، فقد أُصبت بالحمى جراء عدوى من إحداهن. اقتحم جمال خلوتنا عابساً، رمى بنفسه على أول مقعد واجهه، مُنهكا، مُتعبا. أبدى رغبة واضحة بعد إلقاء التحية في محادثتي على انفراد.

نهضت عمتي بعد أن استأذنت بكل لباقة وقالت أنها ستصنع لنا الشاي.

وضع جمال يده اليسرى فوق جبينه، كان شاردا، رأيته، كان يفكر. أغلق هاتفه ثم أعاد تشغيله، وكنت أرقبه بصمت.. ثم اقترب مني وجلس مقابلاً لي تماماً وقال:

" سارة أنا متأسف، متأسف جدا."

" على ما تتأسف جمال، ما يدعو للأسف هو وفاة عمي، أسأل الله أن يتغمده برحمته."

"ربما هو الله من فعل ذلك."

" جمال .. استغفر الله ماذا تقول؟. إنه قضاء وقدر(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). البقرة 216

إن لله حكمته أنا أكيدة من ذلك، لا يجوز جمال لا يجوز التحدث بهذه الطريقة."

" سارة .. أنا أؤمن بالله وأؤمن بكل ما تقولينه، لكنه قد لفت انتباهي شيء إلى الآن أنا أفكر به."

" ما هو جمال ؟ هيا حدثني."

" سارة أنا سمعت الرجال والسيدات ممن يؤمنون بالله ويدعون إليه عندما وصلنا يلعنون ويسبون الذات الإلهية، وكان السيل قد فعل ما فعل. وقد حدثني بعضهم كيف كانوا يستغفرون ويسبحون قبل ذلك بدقائق. أيكون التملق حتى مع الله يا سارة؟ أي إيمان هذا وأي عبودية تتغير بتغير الظروف هيا قول لي؟."

" الحقيقةُ لا فكرة لدي، ثم أنني لا أجيد محاسبة شخص ما على أفعاله وكلماته، لست مُخولة بذلك. هناك إله يراهم والمؤمن فقط من يحس بمراقبته له، ولا أريدك أن تربط إيمانك بأفكار الناس وأفعالهم. يوجد الكثير من البسطاء هنا، مؤمنون بالفطرة، ربما لا يشعرون بوجود الله إلا في الرخاء ووقت زوال الشدة، ويفتقدونه وقت حدوثها. الحقيقة لا أعرف كيف يفكرون، لكنهم مؤمنون وموحدون، يمشون على نهج الجميع، وربما وأقول ربما يفقدون هذا الإيمان في أوقات ما، وينحرفون عن النهج."

"تقصدين أن إيمانهم منوطاً بظروفهم، ما هذا الهراء سارة؟ أنت ! هل يعقل أن تقولي أنت ذلك لا أصدق، وكأنك تقولين أن الدين جزء من العادات والتقاليد، وعندما يفقدون السيطرة، تتجلى لهم الحقيقة واضحة أليس ذلك ما تودين قوله."

" لا جمال ليس هذا ما أود قوله، الدينُ ليس عادة صدقني. الدينُ ما وقرَ في قلبِك واستوطن. يُولدُ مع جسدِك، فطرة، فتستقبلك أجنحةُ الملائكةِ، خارجاً إلى رحمِ الحياةِ، فيحتنضناك والداك ويضعاك أول الطريق، وبعد ذلك أنت من عليك الاختيار.

الدينُ جمال ليس عادة تُكتسب ولا خُلق يُستقطب. الدينُ بذرةٌ في أحشائِك، إما أن تعتني بها، فتكبُر وتستفحلُ فيك حتى النخاع، وإما أن تهملها، فتموتُ قبل غسق فجرك وتندثرُ في غياهبِ الشهوات."

" لست في صدد مناقشة الدين وإياك يا سارة.. أنا أؤمن بوجود الله وأبحث عنه كلّ يوم، ثم أني لا أجد نفسي أكثر قرباً إليه من الآن. ولكنني لا أريد لعلاقتي به أن تكون عادية، أريدها مختلفة تماماً. أريد أن أتعرف عليه في وجه أمي، في خريف الأرض، في انهمار المطر، وتلألئ النجوم .. في انسحاق المجرات البعيدة. أريد أن أراه ببصيرتي، وهم يريدوننا أن نؤمن به دون أن نبحث عنه، أن نكتفي بوجوده وأنا أريد أبعد من ذلك. لا أريد أن أكون مؤمنا مثل أولئك الناس بالوراثة، وعند المنعطف الأول أسقط، لا أريد ذلك سارة هل تفهميني؟. المهم ليس من أجل هذا أود الحديث معك، أتيت الأن فقط لأودعك."

صمت برهة ثم أردف: " للأحلام ضريبة يا سارة أليس كذلك؟ وها نحن قد دفعانها ألماً وغصة، سارة هل تعلمين أني صرت أخشى عليك كل ما اقتربت منك. في المرة الأولى كان الاختلاف عائقاً كبيراً أمامنا واليوم هو القدر.

سارة أنا لا أريد لك أن تتألمي، وما حدث مؤلمٌ جدا، مؤلم للغاية، أعلم أن قلبك لا يحتمله. ألم تقولي قبل قليل "وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم". ربما كان هذا الزواج شراً، ما يدرينا سارة. صدقيني أنا أحبك، لكني بت على يقين أننا لم نُخلق يوما لنكون سويا وسط كلّ هذه الفوضى."

كان جمال يتكلم وقد علت وجهه ابتسامة صفراء باهتة، وفي لحظة تبدلت ابتسامته إلى حزن، وصفاء وجهه إلى شحوب، لمعت عيناه بالكلمة التي اختنقت في حنجرته، أشاح بوجه جانبا وزفر من فمه بقوة وقال بتهكم: "سأختنق".

مرت دقائق ثقيلة، كانت تتحرك ببطئ مع عقارب الساعة المعلقة على الحائط المقابل وكان الصمت رفيقنا.

" سارة أنا سأسافر غدا، لا أعلم إن كنت سأعود أم لا".

اختنق جمال وتحشرج بكلماته. ارتمى ارتماءة الخائف الواهن بأحضان قدره الذي اختاره لنفسه، رسم نهاية للحب، سطرها بكلمات احتمت خلف القضاء والقدر الذي ادعى إيمانه به و بالإشارات التي يبعثها الله قبل وقوع الحدث. لم يكن موت عمي إلا عائقاً مؤقتاً أمام زواجنا، لكنه فضل جعله عائقاً دائماً لسبب أجهله.

" سارة أنا أحررك الآن من كلّ ما كان بيينا يوماً."

" جمال... جمال ...عن ماذا تتكلم ؟....."

" سارة من فضلك اهدأي قليلا....أنا لا يربطني بهذا المكان أي شيء، إلا أنت.. وأنت باقية على الأرض وباقية على حجابك وتمنعك وعادات وتقاليد وشعائر لا تلمسني.. سارة أرجو أن تساميحنني، أنا أختنق لا يمكن لي البقاء أكثر، أما إن عدلتِ عن رأيكِ ستجدينني في انتظارك هناك، في بوسطن، فكري جيدا، حتى أنت لا شيء يربطك بهذا المكان، سافري سارة سأكون في انتظارك هناك ورهن إشارتك، فقط عليك أن تقرري."

ثم وثب من مكانه، وخرج من الباب مسرعاً دون أن يلتفت.

في لحظة، تحول هدوئي إلى غضب، ثم انطفئ الغضب وآل إلى صمت وأنين. امتزجت أفكاري مع أحاسيس مهمشة، تداخلت عبر أوردتي فأحسست بالدم يتدفق إلى رأسي ووجهي بقوة، انحنى بصري إلى أسفل وأغلقت عيناي."

***

عاد جمال أ دراجه إلى ما وراء المحيط يلتهم العمل التهاماً، لا يدع لحظة تسرقه من انغماسه المرهق فيه إلّا ساعات نومه، بين عمله مع الشركة ومطعم والده يوزع أوقاته.

أما سارة فعادت تتجرع الألم على دفعات، تحتسيه مرا وتمضغه علقما. كان عقلها راضخ لإرداة الله التي جاءت فوق كل إرادة. عادت تنغمس في الحياة هي أيضا، تُجدُّ وتدرس في سنتها الجامعية الأخيرة، تنام منكفئة على كتب انتشلتها من مصافي الجراح التي خلفتها أواخر تشرين. فوق مذكرات الأرقش كانت تغفو، في أحلامها ينقلها الحب في زمن الكوليرا إلى رسائل الأحزان. كانت تستيقظ أحيانا على عبرات المنفلوطي والدموع تبلل وجهها، ثم تنصرف لبعض شؤونها وتعود مسرعة إلى زوربا اليوناني، وتنتهي بها مئة عام من العزلة إلى عزلة حقيقة. أما تلك العتمة الباهرة فقد كانت تصهرها في الظلام حتى بزوغ الفجر.

جاء الربيع في ذلك العام سريعاً ودافئاً غير عابئ بأشهر الشتاء القاسية، أرخت شمس آذار أشعتها فوق الجبال المحيطة بالقرية، تفتحت الأزهار الملونة فيها بهدوء. فتطيّبت الأرض وارتدت حلة خضراء. ومع قدوم الربيع بدأت القرية تتعافى شيئاً فشيئاً، رممت أشعة الشمس ما أصاب قلوب أبنائها من تشوّهِ ونتوءات. أزال الدفء بقايا آلامها وتقرحاتها التي تسبب بها السيل. خرجت عجائزها وكأنها في سبات شتوي طويل مُغمضة الأعين مُستدفية، باحثة عن حراراة الصيف وعادت النساء إلى الثرثرة من جديد. فمتى وُجدت الثرثرة كانت القرية في أحسن حال.

كما خرجت القرية من سباتها وتعافت من ألمها، كانت سارة أيضا قد بدأت تشفى من آلام قلبها، أدهشتها محاولاتها بالشفاء. انعطفت في منتصف الطريق عائدة

أدراجها حيث كانت البداية. كان شفاؤها من الحب كشفائها من السعادة. وشفاؤها من السعادة يعني أن قلبها لا يزال يتضور جوعا إلى عالمه، وأن روحها عطشى لماء الحياة. عالم جمال عالم المفاجآت الذي تأبى فيه الصور أن تاخذ أي شكل أو أي منحى، في عالمه تدور الأحداث بعكس التيار نافية كلّ التنبؤات والتفاسير، في عالم جمال كلّ التنبؤات رسالات.

عندما انتصف العام، تراجعت مع انتصافه الهزائم. انتصف العام وهب نسيمه ملتهباً كأنه قادم من الصحراء وبدأت عجلة الحياة تدفع بالأيام نحو الخيبات.

كان يوماً مُشمساً صافياً من أيام الصيف الملتهبة عندما تلقت سارة مكالمة هاتفية من جمال، ترددت قليلا قبل أن تُجيب، بعدها تنهدت بحرقة وأخذت نفسا عميقا:

الو....

وصلت أنفاسه لكن صوته ظل مكتوما وراء ارتعاشات جسده وخفقان قلبه.

الو.....

كانت سارة تسمع بعدها لهاثاً عطِشاً وتنهيدة أشعلتها نار الشوق والوهن.

الو.....

بدأت أنفاسه ترتفع إلى أن تحولت إلى شهقات قادمة من بعيد من وراء المحيط الشاسع المحمل بأشعار المحبين والمثكولين.

الو.....

في الرابعة .. ساد الصمت ثم علا صوت الأنين فرفع الحب راية الاستسلام من جديد.

خافت سارة واضطربت .. هلعت .. نفذ صبرها ..صرخت..

"جمال ... جمال .... جمال .... ما بك أرجوك ، تكلم؟".

جاءها صوته مكسوراً، متقطعا مهزوما: "سارة أنا أحتاج إليك".

امتزج أنينهما بهدوء الدموع المنهمرة عبر آلاف الأميال التي تفصلهما فارتفعت روحاهما إلى علياء السماء والتقتا بعيداً جداً في فضاء رحب، تجاوزا كلّ قيود الحياة، ثم انسالت الكلمات وتدافعت بينهما مُعلنة الحرب على كلّ شيء. انهمر الحديثُ وتدفق عبر شفاه عطشى للإعترافات.

- سارة أنا خسرتُ كلّ شيء.
- جمال لو سمحت، لك أن تفهمني ما الذي خسرته بالضبط؟.
- خسرتُ نفسي سارة .. خسرتُ نفسي.
- جمال أرجوك، تنفس، تنفس حاول أن تهدأ، هل فعلت؟ خذ نفسا عميقا، هيا أنا أسمعك تكلم.

أخذ جمال نفسا عميقا، ثم زفر زفرة من فمه وقال:

- سارة، أنا أعاني تِيها حقيقا منذ غادرت البلاد وغادرتك بعد وفاة والدي, أعا ني تِيها في فهم كينونات البشر، والغايات من العيش. مذ تركتك وأنا أتساءل إن كنت سأستطيع مواصلة العيش!!! كنت أذهب إلى العمل باكراً جداً، وأعود متأخراً جداً متآكلاً مثل آلة مهترئة، لم أعتد هذه الحياة النمطية، أنا لست نمطياً سارة تعرفين ذلك جيدا. تعرفين طبيعتي الملولة، أشعر أحياناً أني بسيط، لكن هذا لا يعني أن أكون سطحياً. كنت مستاء جداً، أشعر أني تائه، وعلى الرغم من ذلك كنت أجد لذة في حالة الضياع

بين حقيقتي كإنسان عليه مسؤولية وحقيقتي كإنسان غير متأكد من ماهيته. هل أنا روح أم عقل؟ مُخير أم أني مُسيّر حسب الإرادة التي قالت قولها وانتهى الأمر؟. الأمر معقد وبسيط. قررت بعدها أن أخوضَ كلّ التجارب، ذهبت إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإلى المسجد أيام الجُمع. زرتُ المراقصَ والملاهي الليلية، لعبتُ القمار وشربتُ الخمر نعم سارة شربت حدَّ الثَّمالة. جالستُ البؤساء والضعفاء وأبناء الذوات، فعلت كلّ ما تتخيلين لكني بقيت على العهد. كنت أريد ان أجد نفسي- في أي شيء، شغفي نحو اكتشاف الحياة جعلني أقحم نفسي في كلّ شيء. كنت أحاول أن أنساك سارة، وكنت أحاول أن أجد نفسي، وفي كلّ مرة كنت أقول لا مزيد من الألم، سأقتلعكِ من صدري، لا مزيد من الألم، لكني لم أستطع، كنتِ أنتِ دائما العامل المشترك بين كلّ هذه التجارب.

سارة التي كانت تستمع بإهتمام بدأت تصرخ بالقوة التي اعتادت أن تستمدها من سخطها على أفعال تراها مخالفة للطبيعة البشرية التي جُبل عليها الإنسان على اختلاف عقائده. صرخت سارة وأنَّبته على خيارات خاض بها بكامل إرادته، وعن ضرر قد لحق به في حياة مآلها إلى الفناء، وخطايا سيُحاسب عليها في حياة أخرى مصيرها الأبدية. تبِع صُراخها بكاءٌ ونشيجٌ أوصل قلبها حد الاختناق. أخذت تتضرع إلى الله وتستغفره لذنب لم تقترفه، بينما بقي جمال يحدق بالسقف يستمع لنحيبها بعد أن هدأ روعه وتوارى جزعه.

بقيا يتبادلان النحيب والصراخ والدعاء والصمت إلى أن انتفضت سارة فجأة وقد سكتت عن البكاء. استعادت خيوط صوتها التي كاد الحزن أن يلتهمها:

- جمال أرجو أن تسمعني بعقلك لا بقلبك. قد طرقت بابي تلتمس مني أن أجد لك طريقا لمصالحتك مع ذاتك. هتفت بإسمي عبر المسافات الكبيرة جدا التي تفصلنا، تستجديني لأجد لك منفذاً من دائرة الضياع، لكني لن أخفيك سراً أن هذه المصالحة لن تتم طالما أنك على نهجٍ غير نهج الحق وعلى طريقٍ غير الطريق المستقيم. تصالح مع خالقك أولاً وابدأ صفحة جديدة في دفترك المليء بالآ ثام. قرَرْ أن تكون مع الله يكن الله معك في كلّ حين. قرَرْ أن تستقيمَ ترى أن كلّ الأمور تبدأ بالرجوع إلى مسارها الصحيح والأهم إحساسك بالرضا والرضا فقط مهما بلغت الأمور من قساوة.

- سارة .. أنتِ ملجئي الوحيد ... وأنا قد تعبت.

لكن سارة التي تغلبت على لهفتها وحرقتها استطاعت أن تحسم أمرها بشيء من القسوة مستغلة فرصة لجوء جمال إليها، عاقدة الآمال على أن تأخذه إلى بر الأمان وطريق الصواب. تجاهلت مشاعر قد تفاقمت داخلها خلال أعوام وأيام. استاطعت أن تتغلب على سكينة تحسها وتستشعرها بحضوره وحضور كلماته. ظهرت حاسمة واضحة قاطعة أمراً لا بد من البت فيه فانتهزت الطريقة الأمثل والأسلم للإمساك بزمام الأمور. زجت بأفكارها عنوة داخل قلبه النافق من الحياة السوية، ودعته دعوة صادقة لا ترجو من وراءها إلا كلّ أجر وثواب من رب يهدي ويُهتدى إليه. دعته إلى ا لوضوء وضوءاً تاماً مُتقنا يغسل به آثامه، وشهادة بالله وبرسوله تكون خالصةً ليجد النور إلى قلبه سبيلاً. بثَّت في جوفه مفاهيم الإيمان والالتزام، حثَّته على الصلاة والاستغفار ليجد طريقه في الدروب المعتمة. بيّنت له أن الدين طريقُه للنجاة لا

للتهكلة. طريقاً يُسع د قلبه ويُنير أعماقه. دعته للتفكير والتأمل طويلاً، إلى الترفع عن مدنسات النفس وتطهيرها بالإيمان والعقيدة السمحة وبالعبادات التي تُنقي النفس من الخطايا كما تُنقي الثوب الأبيض من الدَّنس. قالت له:

- إن كنت تريد البحث عن الله، ابحث عنه في ذاتك أولا، ثم اسلك الطريق الذي تشاء إليه، ستجدُه -إن أنت أردت- في النهاية. لذلك لا يمكنك التوقف عند أي مرحلة وتمضي- في العبادة. الرحلةُ إلى الله كما يُريدها شغفك هي رحلةٌ لا تنتهي إلّا بالخروجِ الأخير للروح، الانطفاء الذي لا يأتي بعده سوى الاستسلام للنهاية. جمال .. الله لا يتنافى مع العلم لكنه حتما يتنافى مع الكثير من العادات والتقاليد. لكن متى وقر الإيمان في قلبك، سيرشدك إلى ما يجب عليك فعله.

بينت له سارة أن لا علاقة للدين بعادات القرويين أو المتمدنين التي ابتدعوها ليضلوا ويشقوا. وأنه لا يمكن للدِّين أن يُرى في أعين أتباعه الذين لربما اتخذوا منه وسيلة للتملق والخداع وإنما يُرى في تعاليمه وأحكامه.

أما جمال الذي بقي منصتاً طوال الوقت، فقد شعر كأنه أفرغ طاقةً سلبية كبيرة من خلال ذبذبات الهاتف قاطعة مياه المحيط وسماء الأرض الأولى عبر الأقمار الصناعية. أقسم جمال أمام سارة بملئ فمه ألا يعود إلى عبثه لكنه اشترط بعودته تلك عودتهما إلى سابق عهدهما من أيام الحب الفائتة. فكان قسم وكانت وعود فعاد الحلم يرتفع بهما نحو فضاء واسعٍ لامتناهٍ. وعد جمال سارة أن يبحث عن النورِ في أعماقة وأن يجده في دهاليز الغاب وأنقاض الحياة. ووعدته سارة بالعودة من جديد ليكتبا معا أول سطور الحب على صفحةٍ جديدة بيضاء في كتاب جديد بدلا من الكتاب

القديم الذابل، لا يشوبها كدر ولا حزن، إن هو عثر على النور وسمح له بالتغلل في شراييه كما يسري الدم النقي في جسده.

كانت تلك الحادثة بداية لعهد جديد استرجعا فيه أحاديثهما صباحاً ومساءَ بكلمات لا تنضب، ومشاعر لا تنتهي. ينتظران الساعات التي تجمعهما آناء الليل وأطراف النهار. الساعات التي تربط نوم أحدهما بإفاقة الأخر فترتبط الصباحات بالإغفاءات في حركة الكون وحركة الأرض حول الشمس.

***

انقضت سنة سارة الجامعية الأخيرة، مع أوائل الصيف. حصلت على بكالوريوس في علم الأشعة من جامعة أردنية تعتز دائما بمكانتها المرموقة بين الجامعات، وتتباهى بما تُنجبه من خريجين قاسوا مخاضاً إلى أن وصلوا في النهاية إلى القمة.

كان اسم سارة قد أُدرج على لوحة الشرف، احتلت المرتبة الأولى على دفعتها بتقدير امتياز مما أتاح لها فرصة الاستفادة من المنحة التي تعطيها الجامعة لأوائل الأقسام لاستكمال دراستهم العليا. قدمت سارة أوراقها لرئاسة الجامعة فور تخرجها مُعلنة رغبتها في دراسة الماجستير في جامعة أردنية حسب قوانين الجامعة التي تعطي لها الأولوية في ذلك. لكن إدارة القسم رفضت ابتعاثها داخل الوطن بحجة أنهم ليسوا بحاجة إلى شهادات أردنية وأنهم يفضلون خريجي الجامعات الأمريكية أو الكندية. كان قرار الجامعة بالرفض تشكيكا واضحا بمؤهلات أبنائها وبقدرة طاقم الأساتذة المشرفين على رسالات الدراسات العليا وبمدى قدرتهم على إنجاب جيل آخر يخدم

الوطن ويرقي بالمستوى العلمي المطلوب. كانت سارة في حيرة من أمرها بوطن يتربص بنفسه. بوطن يتصيّد الأخطاء ويوقع بأبنائه ويقلل من شأنهم. عادت تستذكر مبادئ جُبلت عليها ونمت في داخلها عن عطاءٍ يجلبه انتماءٌ حقيقي وانتماء يفضي إلى الحب الخالص. لكن العطاء لم يجد والانتماء أحدث ردة فعل صنعت شرخاً عميقاً في حب الوطن.

أشارت الجامعة عليها بالبعثة خارجاً إلى كندا إلى جامعة يتعاقد معها القسم، لكنها رفضت أن تترك وطناً أحبته حتى النخاع وتشبثت به تشبث الخائف بمظلة الأمان.

رفضت أن تترك فرصةً هي أحق بها من غيرها لتذهب أدراجها مهب الريح.

بدأت سارة بالعمل في مختبرات الجامعة لغايات الابتعاث حتى يُبت في طلبها من جديد والذي كان يجيء جوابه في كلّ مره "نريد خريجين من خارج الوطن". كانت الواسطة والمحسوبية الطريقة الأنسب في استراق الفرص في وطن كانت سارة تراه منزهاً وبعيداً كلّ البعد عنها.

تفاجأت أن أول منحة أُعطيت لأحد زميلاتها لتكمل مشوارها داخل الحرم الجامعي وهي تتساءل مستغربة عن ردود القسم التي تناقض كلّ قرار.

بعد شهرين صرّح لها أحد الأساتذة أنَّ عليها أن تستفيد من المنحة خارجا، لأنه لا جدوى من انتظار المنحة داخلاً ما لم تمتلك "واسطة قوية". لكن سارة رفضت رفضاً قاطعاً أن تستسلم وتترك أحقيتها في هدية قد منحها إياها الوطن وستُسلب منها عنوة فكان جوابها حاضراً دائماً: "إما منحة في الداخل وإما لا".

انقضى الصيف سريعا. كان جمال وسارة قد أنهكتهما ساعات السهر الطويلة لتلتقي أحلام كلّ منهما مع يقظة الآخر كلّ صباح قبل أن يقررا إنهاء تلك الساعات بمجئ خريف آخر.

لكن الخريف في ذلك العام، جاء مُخيفاً مليئًا بالهواجس، محمّلاً بالذكريات المؤلمة.

كان جمال وسارة قد أبرما اتفاقاً على إتمام عقد القران في أواخر تشرين بما يتناسب وإجازة جمال. ورغم أن سارة حاولت أن تُثنيه وتُقلل من عزيمته لتأجيل ذلك إلى وقت أخر يكون فيه الخريف قد انصرف وغاب، إلا أن جمال أكد لها مراراً وتكراراً :" إجازتي سارة، هكذا هي إجازتي لا مفر".

ففي الأشهر التي سبقت الخريف أظهر جمال في كلّ خطوة يخطوها وفي كلّ كلمة يتفوّه بها بل وفي كلّ نفس يشهق به ويزفره، رغبته في البقاء على طريق النور والابتعاد عن كلّ ما يمكن أن يعكر صفو إيمانه، وكانت سارة تُبدي له من الرضا ما يجعل نفسه تسكن.

في الخريفِ الثالث وَصل جمال أرضَ الوطن في ساعةٍ متأخرة من الليل، استقبلته السيدةُ صفاء كعادتها بروح الأم الحنون، احتضنته كأنها تحتضن سفراً قاصداً وسط أشجار الحديقة المُضاءة، فعانقها عناقاً طويلاً مُحملاً بأشواقِ عام عبرت المحيط ذهاباً وإياباً.كان في عناقهما لوعةٌ، وجروح ملتهبة، ودموع تائهة، وابتسامات ذابلة استدعت الصمت والنحيب. أمّا سارة فوقفت أمامه في ارتباك بعد أن تغيرت هيبته. كان يبدو لها غريباً حتى في مُبادلتها الابتسامات الصفراء اليائسة. وضعت يدها على صدرها مُسَلِّمة ثم تنحت جانبا وأسلمت نفسها للحظات اللقاء الحارقة..

عاد جمال في تشرين، ناجت سارة ربها وتضرعت له كثيرا ألا يكون تشرينا كسابقيه. وصلَ جمال وسط السكون الخفي وإيماءات الحياة الرتيبة والأعين الخفية التي تسترق النظر في عتمةِ الفضاء. قضى الثلاثةُ ليلتهم بين فرح وغبطة وحزن وذكريات حتى كُبِّر للفجر، فاستأذن جمال مودعا لينام في منزله. لكن السيدةَ صفاء عارضته وأعلنت عن رغبتها في أن ينام في منزلها حتى نهار اليوم المقبل. دخل الجميع، وأدخل جمال حقائبه إلى غرفة نوم فيها سرير وخزانة ومكتب. فتح إحدى حقائبه وتناول منشفته، ثم توضأ وأقام صلاةَ الفجرِ بإتقانِ المؤدي الورع حتى نال من إتقانه لها ما نال من نفسِ سارة فسكنت واطمئن قلبها وسمحت لابتسامات الفجر المشرقة أن تعلو وجنتيها.

نامت سارة بعد أن رجعت الشمس من مخدعها منتشية بلذة المستقبل الذي بدا لها جميلاً، وألقت بالحزنِ جانباً لولا وجه أبيها الذي جاءها حزيناً مُتجهماً، يتلو آيات من سورة (يس). كان يقرأ بترتيل الأب المُثكل بالجراح، ترتيلاً تخشع له القلوب وتدمع له الأعين . سألتْهُ سارة عند انتهائه عن سبب حزنه واضطرابه واختياره لسورة (يس) على وجه التحديد، لكنه كان يغيب قبل أن يُجيب فتسلم سارة نفسها للنوم وللأحلام.

صعدت الشمس إلى كبد السماء متهافتة. فتحت السيدة صفاء ستائر المنزل وهي تردد بصوت عال: "هيا يا أبنائي أمامنا عمل كثير".

كانت ساعات الظهرِ ساعات رطبة ندية، امتلأت بالحب المتقطع وبالعواطف المنهارة. بدأت السيدة صفاء كعادتها بالقيام بدورها كأم وولية أمر على أتم وجه. لم تدع تفصيلة تغيب عن فكرها مهما بلغت من صغر لتكمل زواجاً ظل هاجساً لها منذ

سنوات. أدركت أهمية الوقت، فقررت أن تستبق الدقائق وألّا تدعها تفوت دون أن يستمتع الخطيبان بكل دقيقة فيها. أعدَّت غرفة الضيوفِ وجهزتها لاستقبال الشيخ الذي سيعقد قران ابني أخويها.

أعدت ومنذ الليلة الماضية الحلوى والفطائر والعصير والقهوة العربية قبل أن ترتمي في إغفاءة قصيرة. جهزت فطوراً سريعاً وسكبت الشاي في الفناجين وهي تردد:

"هيا يا أبنائي، الفطورُ جاهز".

استيقظ جمال الذي كان ينام في الطابقِ السفلي وابتسامة تملأ وجهه، بينما اضطرت السيدةُ صفاء إلى صعودِ الدَّرج لإيقاظ سارة.

استقبلَ الجميعُ يومَهم بابتسامةِ أمل ووجه صافٍ وأحلام ربما آن أوان تحقيقها. وما إن أنهوا الفطور المتأخر، حتى قُرع جرس المنزل، ففتحت السيدةُ صفاء الباب واستقبلت الضيوف بعباراتٍ توددية، منشرحة الصدر وبوجه منير:

" أهلا وسهلا ... أهلا وسهلا .... ".

دخل الشيخُ يتبعه رجلان هما شاهدا عقد الزواج. فضَّلت السيدةُ صفاء أن يقتصر عقد القران على العروسين والشاهدين بحضورها وحضور الشيخ دون مراسم أو احتفالات قد تُكلِّف سارة وجمال فرحتهما. كان ذلك قراراً بالإجماع اتخذه الخطيبان وعمتهما، متفقين جميعاً على إقصاء العادات والتقاليد ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط.

استقبل جمال الضيوف، بينما اكتفت السيدة صفاء بالعبارات الترحيبية، بعد أن جلسوا في الغرفة المعدة، سكب جمال القهوةَ العربية للجميع.

بادلوه السؤال عن الأحوال، وعن الوالدةِ والعمل، تبعها التمنيات بالرحمة لوالده، بعد أن ذكروا حادثة السّيل ووفاته في العام السابق.

كان جمال لَبِقاً في الحديث، يُصاحب أحاديثه ابتسامة، كان سعيداً. دخلت السيدة صفاء وابنة أخيها سارة إلى الغرفة التي يجلس فيها الجميع، حيّتهم سارة بتحية الإسلام، وجلست على كرسي حول طاولة دائرية يترأسها الشيخ.

أخرج الشيخ دفتراً كبيراً فيه مجموعة أوراق مطبوعة بآلة الطباعة كُتب في ترويستها " عقد زواج" وعلى أطرافها اسم الزوج، يتبعه اسم الأب والأم والعائلة والدين. وعلى السطر الذي يليه كُتب اسم الزوجة، ويليه ذات الخانات الأربعة. وفي باقي الصفوف كانت خانات فارغة تحمل عنوان شروط الزواج والمؤجل والمعجل. وفي أدناها كُتب أيضا توقيع الزوج والزوجة والشاهدين.

بدأ الشيخ بقول" بسم الله الرحمن الرحيم" وهو يفتح دفتره العريض، ثم ردد أية من القرآن الكريم:

[وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] الروم: 21

ثم نظر إلى سارة وسألها:

"هل تقبلين جمال زوجًا لك على الصداق المسمى بينكما؟"

عندما أرادت سارة أن تُجيب وقفت الكلمة في أسفل حلقها وعلقت بين أحبالها الصوتية. رأت وجه أبيها خارجاً مع الأوراق وقد تكدَّر واصْفر، كان يرتل آيات قرآنية بصوتٍ مُتقطع متهدج. كادت سارة حينها أن تفقد صوابها وتسأل والدها لكن السيدة صفاء التي كانت واقفة خلفها، همست في أذنها واستدركت الأمر:

"سارة ... الشيخ يتحدث إليك".

أغمضت سارة عينيها ووضعت يديها فوق أذنيها وهتفت بصوتٍ سريع وخاطف:

"نعم... نعم... نعم".

هزتت السيدة صفاء سارة من كتفها :

"سارة .. سارة... سارة".

فتحت سارة عينيها في ذهول.

"توقيعك هنا يا ابنتي"... قال الشيخ وهو يحاول إخفاء تعجبه واضطرابه.

"مبارك."

رسمت سارة توقيعها في أسفل ثلاث أوراق متتالية، تبعها جمال والشاهدان على التوالي، جميعهم رسموا توقيعات مختلفة. عندما انتهوا بارك الشيخ للعروسين:

"مبارك ..مبارك.."

تبعه الشاهدان وقد رددوا كلمات مشابهة:

"مبروك... مبروك".

أطلقت السيدة صفاء زغرودة قروية مشوهة بدت كأنها صفارة إنذار في يوم ماطر، لكنها أبهجت العروسين. قبلت العروسين وباركت زواجهما بأدعية مختلفة، تصافحا أمام الجميع وأطلق الجميع أمنياتهم لهما بالتمام على خير.

امتلأ جمال وسارة بالسعادة. ودعا الشيخ والشاهدين بامتنان. اقترحت السيدة صفاء أن يقضي العروسان ما تبقى من يومهما خارج القرية في نزهة لتناول طعام الغداء بعيدا. وافقا برحابة صدر. غادرت السيدة صفاء إلى شؤونٍ أرادت إكمالها في المطبخ. استأذنت سارة لتجهيز نفسها من أجل الخروج، ناداها جمال:

- لكننا لم نلبس خاتم الخطوبة.

- كيف سنلبسه ونحن من البداية لم نشتره.

أخرج جمال من جيبه علبةً حمراء مخملية :

- من قال لك أننا لم نشتري.

نزع جمال عن رأسها منديل الشعر، فتناثر شعرُها الأسود وانسدل فوق أكتافها. أمسك بيدها وأدخل الخاتم في إصبعها:

- واسع قليلا..

قال جمال مبتسما.

رفع يدها إلى شفتيه وقبلها بعمق. لكن سارة سقطت أرضا فجأة. ارتمت مغشيا عليها وقد اصفر وجهها وارتجفت أوصالها.

شحب وجه جمال، ارتعدت أجزائه وصرخ: "عمتي عمتي". هرعت السيدة صفاء

- ما الأمر ما الأمر... سارة حبيبتي ما بك.

أسرع جمال إلى المطبخ وأحضر كأس ماء، عندما عاد وضع رأس سارة في حجره ونثر رذاذا من الماء على وجهها ففتحت عينها وانتعشت.

حمل جمال سارة بين ذراعيه، ثم وضعها في سريرها.

جلس إلى جانبها فأرخت رأسها على كتفه، وأمسك بيدها.

- سارة ما الأمر يداك ترتجفان، هل تشعرين بالبرد؟

أشارت بحركة من رأسها مفادها النفي.

- لا وقت لهذا الدلع الآن.. نُريد أن نفرح سارة، كفانا ألما، كفاذا كلّ ما حدث.

ابتسمت سارة ابتسامة صفراء باهتة، ثم أغلقت عينيها.

نامت سارة سريعا. أسند جمال رأسها إلى الوسادة وغطّاها بغطاء ثقيل، قبّل جبينها، أغلق الباب بهدوء وانصرف. في الخارج وجد عمته تبكي، بادرها بالسؤال:

- ما الأمر عمتي؟ ما سر هذه الإغماءة؟ أشعر أنك تعلمين شيئا لا أعلمه.

تلعثمت السيدة صفاء ثم لملمت كلماتها وأجابت:

- الحقيقة أنها ليست المرة الأولى.

- عمتي .. دعينا نتحدث في الأسفل، ولتخبريني بكل شيء.

إلى الأسفل نزلا، كان الخوف قد أخذ من قوتهما ما أخذ. اتكأت السيدة صفاء على مقابض الدرج الحديدة، تبعها جمال بصمت. سكب جمال فنجاناً من القهوة العربية وجلس:

- هيا عمتي أخبريني ما الأمر؟.

مسحت العمة وجهها بمنديلٍ سحبته من الحافظة المركونة على المنضدة بجانب القهوة، ثم تناولت كاس الماء، ورشفت منه رشفة واحدة وأعادته إلى مكانه.

- لا أعلم جمال كيف أبدأ الحديث، إنها مسألة شائكة معقدة وخطيرة.

- ابدأي من حيث شئت عمتي فقد بدأ قلقي يزداد.

- الحقيقة أن الأمر يدعو إلى القلق. جمال عزيزي، هذه هي المرة الرابعة التي تُصاب بها سارة بهذه الحالة من الإغماء، المرةُ الأولى كانت بعد مُغادرتك العام الماضي، وبعد ما جرى بينكما من حديث، ما إن استقليتَ السيارة التي ستُوصلك إلى المطار وغبت بين الجبال حتى وَجدتُها مُلقاةً على الأرض كما حدث اليوم.. يا قلبي يا سارة.

أجهشت السيدة صفاء بالبكاء، وضعت يدها فوق جبينها وأخذت تنتحب.

- عمتي أرجوك أكملي، ماذا فعلت حينها، هل عرضتها على طبيب ؟ أخبريني.

مسحت السيدةُ صفاء وجهها بمنديل آخر وأكملت:

- ماذا عساني أفعل يا جمال، صرختُ، بسملتُ ومسحتُ فوق رأسها، ثم أحضرتُ كأساً من الماء ونثرت من رذاذه فوق وجهها حتى أفاقت.

في اليوم التالي أقنعتها بالذهاب إلى الطبيب، وفعلت وراجعت طبيبا في عيادة الجامعة والذي بدوره أحالها إلى العيادات المختصة في المستشفى. أجرت تحاليلاً كثيرة لكن النتائج السريرية جميعها جاءت إيجابية.

جمال الذي كان يستمع بإنصات، خرج عن صمته وقال :

- ما الذي تودِّين قوله عمتي، تعني أن مشكلة سارة نفسية، هذا ما تودين قوله؟

- الحقيقة أنه يصعب علي مصارحة أحد بهذا الموضوع، لكنه قد آن الأوان.. جمال استمع إليّ وعِ كلّ ما سأقوله لك؟

- عمتي قد أُصبت بالهلع جراء طريقتك بالحديث هيا تكلمي.
- بدأت سارة تتصرف بالأوانة الأخيرة بشكل غريب، أنا أعلم أنها ترى والدها منذ زمن لكني لم أعر ذلك أي اهتمام، اعتقدت أنها تحلم. لكن في الفترة الأخيرة ازداد ذلك، دائما أراها شاردة، قلقة، تجفل عند كلّ حركة مفاجئة، أصبحت غريبة الأطوار تنام كثيراً، وأحياناً لا تنام أبداً. ربما لاحظت ذلك اليوم عليها أثناء عقد القران. أعتقد أنها على هاوية المرض، أنت تعلم أن هذه الأمور حساسةٌ جداً في هذه القرية، ما إن تُفصح أن أحداً من أفراد أسرتك مُصابا باضطرابات نفسية، حتى يصلك الخبر بعد ساعات أن أسرتك جميعاً مصابة بالجنون. لا يمكن بني التحدث بهذا الموضوع هنا. ثم أن الجانب النفسي للإنسان هنا مهمش، والمرأة أكثر من الرجل. في "بوسطن" يُهتم بالصحة النفسية للطفل كما الجسدية، ويُتابَع سلوكه أولاً بأول. سارة فقدت والديها وشهدت وفاةَ والدتها ليلة كاملة، لم نهتم، نحن جميعا مسؤلون عن كلّ ما يحدث. ليتها تسافر وتبتعد، ليتها ترضى أن نترك هذه القرية لعامٍ واحد، عام فقط، تتزوجان فيه، وتُعالج، ثم نُكمل حياتنا موزعة بين هنا وهناك. سارة متعلقة بهذا البيت وهذه البلد، لا يُمكن إقناعها، رأسها كالصخر مثل والدتها رحمها الله.
- عمتي ما تقولينه خطر، خطر جداً، لمَ لم تخبريني بذلك من قبل، لمَ انتظرتِ كلّ هذا الوقت؟ وهل تعلم سارة بذلك؟
- لا أعلم، لكن سارة ذكية، تقرأ، تكتشف كلّ شيء من خلال الكتب، أخبرتني يوما أنها لا رغبة لها في شيء، وأنها لا تستمتع بأي شيء مهما كَبُر

أو عَظْم، قالت لي أنها تشعر بالقلق والخوف دائماً، ترى كوابيس وترى والدها أحياناً كلّ يوم، قالت لي أن هذا كله من علامات الاكتئاب لكني لن أصدق كلّ ذلك... لا أدري ما أقوله أيضا جمال، لا أدري، رأسي سينفجر.

بقي جمال صامتا هذه المرة، رمى برأسه على الأريكه، ثم أغمض عينيه.

حل المساء ، قبل ذلك، كان جمال قد صعد إلى غرفة سارة مرتين، ليتفقدها وفي كلتا المرتين كان يجدها تغطُّ بالنوم.

عندما استيقظت سارة كانت هالة سوداء تلف عينيها، لم يكن الوقت متأخرا فلم تتجاوز الساعة السابعة عندما نامت السيدة صفاء بعد يوم مُنهك، ناقص الفرحة. لكنها كانت سعيدة لاكتمال مشروع الزواج بنجاح. كان جمال مستلقياً على الأريكة عندما رأى سارة تعبر من خلال الممر المعتم إلى المطبخ. تَبِعها بهدوء. عندما اقترب منها، فزعت، احتضنها من الخلف: "حبيبتي هذا أنا لا تخافي" وضع يديه حول خصرها، احتضنها احتضان الظمآن للماء في صحراء.

ضمها بقوة، ألصق صدره بظهرها، اشتم شعرها، وضعت يديها فوق يديه، لثم خدها وهمس في أذنها: "أحبك."

صنع جمال كوبين من القهوة، ثم جلسا متقاربين، تشابكت يداهما وتغلغلت أصابعهما والتصقتا. كانا على مقربةٍ من الحلم، بينما كان الحلمُ يطير محلقا فوق رأسيهما. كانا سعيدين باللقاء، تبادلا الغربة والحنين، عزفا لحناً من سمفونية الحياة على أوتار الحب، استكشفا ينابيع الكلمات، تدافعت بين شفتيهما مُزدحمة. أمضيا ليلة

مُقمرة، تناجا فيها حتى الفجر، فأشرق الصبحُ وهما عنه في ذهول وسكينة. ودَّعها بابتسامةٍ ودعاء وانصرف إلى منزله، وودعته بأمل .

كانت إجازة جمال قصيرةً جدا لا تكفي لفعل أي شيء في عالم الحب. أمضياها في انتظار ينتهي بلقاء مساءَ. كانت سعادتهما عارمة، صافية إلا من قلقٍ كان يكدرها كلما حاول جمال طرح قضية السفر إلى بوسطن. حاول جمال إقناع سارة أكثر من مرة أن الدراسة هناك أفضل، والحياة أسهل، تمهيداً لمبادرتها بما يخص العلاج هناك، لكن في كلّ مرة كانت محاولاته تَبوء بالفشل، حتى جاء اليوم قبل الأخير لمغادرته إلى "بوسطن" والذي لم يكن مُقررا له على الإطلاق.

في تلك الليلة جلسا وحيدين في غرفة الجلوس، كانا قبل ذلك قد تناولا العشاء برفقة عمتهما، رتبت السيدة صفاء غرفة الطعام ثم استأذنت بحجة التعب وانصرفت إلى النوم وهي تردد: "لا تسهروا كثيرا، لا تُتعبها يا جمال لديها عمل غداً". ألقت السيدة صفاء بأوامرها ووصاياها كما هي العادة وتركت الحبيبين لشأنهما.

جلس جمال على الأريكة التي اعتاد الجلوس عليها في صدارة الغرفة، جاءت سارة بالشاي ووضعته على الطاولة، وقبل أن تجلس على المقعد المحاذي لها شدها جمال من يدها وأجلسها في حجره. عانقته سارة ووضعت يديها متشابكتين خلف عنقه، التصق جبيناهما: " كم سأشتاق لك يا سارة". قال جمال هامسا.

" وأنا أيضا جمال". ضحكا من الأعماق. وبحركةٍ خاطفةٍ نهضت سارة وجلست في المقعد المجاور.

– سارة ما هي أخبار المنحة؟ أما زالت الجامعة رافضة أن تُعطيك إياها داخلا؟

- نعم جمال، لكنه حقي وسأنتزعه انتزاعا.

- لمَ كلّ هذا العناد يا سارة يُمكنك أن تفعليها في "بوسطن" دون منحة، تستطيعين أن تراسلي جامعة "بوسطن" وسأجعل أحد أصدقائي يكتب فيك توصية، ستحصلين على قبول، تدرسين وتعملين، لماذا يا سارة كلّ هذا العناء؟ باشري من الغد بذلك أخشى أن يسرقنا الوقت فيضيع العام فلا أنت أكملتي دراستك هنا ولا هناك.

كانت سارة في كلّ مرة تأخذ من انتظارها لمنحة الجامعة حجة قوية، لكنها في النهاية قالت له صراحة:

- ربما جمال لن أستطيع ترك هذه البلد أبدا، كنت أود مصارحتك قبل هذا اليوم لكنني لم أقوَ على ذلك. قد لا أستطيع السفر، لمَ لا تأتي هنا ونعيش هنا ربما ليس في هذه القرية، نسكن في عمان، الحقَّ جمال أني ألتصق بهذا البلد التصاقاً ثم أني لا أريد أن أربي أبنائي هناك، أريد أن أربيهم تربية عربية، أريد أن يصبحوا عرباً، لا أجانب اً، أريد أن أنمي فيهم كلّ الصفات العربية الأصيلة، أربيهم على الدين وحبه، أريدهم أن يصبحوا شعراء, كتاباً, لا أريد لهويتهم أن تنصهر هناك....

جمال الذي عبس وجه وتبدلت ملامحه قال وكأنه يصرخ:

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ ومن قال لك أن من يعيش هناك تنصهر هويته؟ يمكنك سا رة أن تكوني أنت، أنت فقط أينما كنت وأين ما حطَّت قدماك. يمكنك أن تكوني عربية وأنت في أقصى الدنيا، وتكوني مُسلمة، تكوني شاعرة إن أردت أنت ذلك. لا علاقة بالمكان بكل هذا. نحن من نصنع أنفسنا سارة وليس المكان أو الزمان. ثم من قال لك أني أؤمن بهذه

الهويات أو أحبها. الهويات التي تتحدثين عنها هي من أوجدت الفرقة والنزاعات بيننا نحن كبشر، ونسينا الهوية الكبرى، إنسانيتنا سارة، هل نسيت أن الإنسان يُخلق إنسانا أولاً، يكفي أن يكون ذلك بالفطرة، أن نَدَعْ أبناءنا يكونوا كذلك، دون أن نُشوِّه سمة خُلقت معهم، لمَ الاصرار على إدخال هويات لا تعني إلا العنف والكراهية؟

سارة أنا أعرف مدى تعلقك بالأشياء والأفكار، لكني أريد لقلبك أن يتعلق بشيء حقيقي أكثر، فلتتعلقي بالله، دون أن تتعصبي للدين، الله في كلّ الأديان يدعو للمحبة ونشر السلام، الدين أكسجين الروح، في صعودنا الذّرى الصعبة نحتاج إلى الطمأنينة والعزيمة، نحتاج إلى القوة التي يمنحنا إياها الإيمان. ولقد عرفت أديناً كثيرة، ولم أجد أكثر تسامحاً من الإسلام. وُلدت عليه وإن كان والداي ينتهجان غيره، لكني أحب أن أموت عليه. الشجاعةُ هي التمسك في اللحظة التي يبدأ فيها الآخرون في الانفلات. ثم الإسلام حث على التغيير، على العمل. لقد قلتها لك سابقا أنت تخافين التغيير، لا لشيء، فقط لأنك خائفة، وهذا سيَكلفك الكثير سارة. ثم ما معنى انتظاري إذن؟ هل تعتقدين أنه بالإمكان أن أعيش هنا؟ ما هذا الهراء؟ أنت تسخرين مني أليس كذلك؟.

- لا جمال ما أنا بالّتي أسخر منك، أريدك أن تفهم أني لا أستطيع ترك بيتي، ذكرياتي، أرضي، وطني، لا يُمكنني، لا أستطيع جمال أرجوك افهمني من فضلك.

- لا بدَّ أنكِ فقدتِ عقلك سارة، ما هذا بكلام شخص متزن. سارة سأكون صريحا معك الآن، أنت تعانين من اضطرابات نفسية من فرط التصاقك بهذا المكان، لن يكون هذه الأمر في صالحك، أتفهم انتماءك لوطنك وقوميتك لكن هذا لا يعني أن تبقي أسيرة هنا، لماذا تفرضين على نفسك كلّ هذه القيود لا أفهم. دعينا نسافر سارة، هناك أخصائيون سيساعدونك على تخطي هذه المشكلة، لكنها الخطوة الأولى، فلتفكري جيداً، ولتختاري سارة، أنا أو انتماءاتك. ولتكن هذه المرة الكلمة، فصل. تصبحي على خير.

قالها جمال وانصرف إلى بيته غاضبا، بينما بقيت سارة تبتلع الألم ثم صعدت إلى غرفتها ووجهها مبتل.

صباح اليوم التالي ذهبت سارة إلى الجامعة، كان عملها في المختبرات لغايات الابتعاث يمقته جمال حد البغض. امتنعت الجامعة عن إعطائها إجازة ولو ليوم واحد بأعذار كثيرة وتبريرات أكثر. انقضى أسبوع الغبطة والفرح. كان عمل سارة يبدأ من الساعة الثامنة ونصف وينتهي عند الخامسة مساءَ. عندما تنتهي تفضل الخروج عبر باب الجامعة الخلفي وهو عبارة عن ممرٍ صغير يربط الكليات الطبية من نهايتها بالمستشفى الملاصق لها تماما، تخرج من مختبرات الأشعة، سائرة عبر الممرات المتصلة بالمصلبات، حيث يجتمع أغلبية طلبة الكليات. كلّ مصلب أو "سكوير" -كما كان شائع- يحمل اسم الكلية أو رمزها، ابتداءَ من كلية العلوم تليها كلية الصيدلية ثم التمريض وانتهاءَ بكلية الطب أقصى الشمال المتصلة بممر ضيق لا يتجاوز الثلاثة أمتار ويؤدي إلى المستشفى ومواقف سياراته.

عندما وصلت لنهاية رحلتها عبر الكليات، ظهر المستشفى بواجهاته الأربعة الضخمة من الأسفل كناطحة سحاب. كان المستشفى يأخذ تصميم الصليب، يفصل أقسامه، سكويرات معنونة بأحرف وأرقام. كانت الساحة المحيطة بالمستشفى مليئة بالمرضى والزوار والطلبة والموظفين. أشخاص من كافة الأعمار والأجناس والمستويات الاجتماعية. بعضهم كان ينتظر الحافلة، والبعض الآخر ينتظر صديقا والآخر حبيبا. كانت سارة تسير على مهل، تنظر بكل الاتجاهات باحثة عن جمال حيث موعدهم كلّ يوم منذ أسبوع. عندما تأكدت من عدم وجوده أمسكت بهاتفها ثم لمست اسمه المكتوب في أعلى قائمة المتصلين لكن الرد الآلي جاء سريعا:

"الهاتف المطلوب مغلق حاليا يرجى الاتصال فيما بعد".

أحست سارة بالقلق، أخذها شعور نحو خيبة كبيرة تنتظرها. أعادت الاتصال مرة أخرى وهي متأكدة من أنها ستحصل على نفس النتيجة ذلك لأن الهاتف يُرسل للمتصل رسالة أوتوماتيكا فور فتح المستقبِل لهاتفه.

عندما كان الانتظار لا يجدي نفعاً، فضّلت سارة صعود الحافلة المتجهة إلى المجمع. جلست في مقعد منفرد. زاد اضطرابها والدها الذي جاءها يتلو سورة يس مرتلا. أخذت سارة بالإنصات شيئاً فشيئاً حتى سكنت وهدأت. عندما انتهى لم تنطفئ صورته في ذهنها، بقيت عالقة في أعماقها، قفل مبتسما، أدار وجهه نحو السهول الحمراء، نالت ابتسامته منها فأحست بالرهبة التي كانت تملأها قد تتبدد مع تبدد الغيوم وسط السماء.

في أثناء الرحلة التالية من مجمع الحافلات إلى القرية فضلت سارة الارتماء في أحضان الإغفاءات. أمالت برأسها نحو النافذة متأبطة صدرها، شيئاً فشيئاً أغلقت عينيها وأرخت روحها إلى أحلامها.

كانت الإغفاءة نذير الشؤم الذي تخشاه سارة. رأت في إغفاءتها جمال يغرق في قعر وادٍ ضحل الماء. اعتقدت أنه يغرق في الوحل وسرعان ما انتبهت أن رأسه ينزف ويتفتت ويهطل تحت قدميه. في الوقت الذي لم ينفذ رأسه من محتواه كانت قدماه تغوصان أكثر فأكثر في الدم والأشلاء.

ارتجفت سارة وكادت تسقط من مقعدها عندما انحنت الحافلة عبر انحناءة حادة وطويلة، سرت في جسدها ارتعاشة المساء في يوم خريفي بارد من أيام تشرين الملبدة بالغيوم.

وصلت عند السابعة، كان الظلام قد أشاح بوجهه عن الشمس واستقبل القرية بسكون كما يفعل كلّ يوم، التهم الطرقات والجبال وظهرت الأشجار والمنازل كما الأشباح في قصص الأطفال. كان منزل جمال مُطفئا، غائراً وسط الظلام، ساكناً لا ضوء فيه ولا حراك. عندما وصلت سارة منزلها كانت الأنوار مشتعلة عند المدخل وتحت الممر المغطى بعرائش العنب ذات الأوراق الصفراء البالية، تقدمت نحو الشرفة وفتحت الباب ونادت عمتها كعادتها :

" عمتي ... عمتي أنا أتيت".

لكن صوتها قد عاد إليها خائبا، عبر باهتزازاته غرفة الجلوس، اصطدم بالجدران وكل قطعة أثاث. أعادت الكرّة عبر الممر المؤدي إلى غرف النوم والمطبخ لكن صوتها لم يأتِ إلا بما جاء به سابقاً. تفقدت الحمام وغرفة المؤونة. بدا لها غريبا خروج السيدة

صفاء في هذه الساعة من المساء بينما تستعد القرية للخلود إلى النوم حتى الصباح. أسرعت سارة إلى هاتفها، هاتفت عمتها فأجابتها السيدة صفاء بهدوء أقرب إلى الهمس. اعتذرت لأنها اضطرت للخروج سريعا إثر تلقيها اتصالاً هاتفياً من إحدى الصديقات تخبرها بأن صديقتهن المقربة على فراش الموت، أصيبت بنوبة قلبية حادة ولم يتسن لها من فرط المفاجأة إعلام سارة.

" لن أعود قبل العاشرة".

أنهت السيدة صفاء المكالمة قبل أن تتيح الفرصة لسارة السؤال عن جمال وما إن كانت قد رأته أول النهار.

عاد القلق والاضطراب يعصفان بقلبها. أخذت تجاري الدقائق كطفل رضيع ينتظر إيلاج الحليب إلى داخل فمه. راودت دقائق الانتظار، حاولت ترويضها لإضاعتها، لكنها فشلت عندما أحست بألم مُفاجئ يُطيح بمعدتها، ذهبت إلى المطبخ تصنع بعضا من منقوع الأعشاب. لمحت خيالا يقف خلف الستائر المخملية التي تغطي نوافذ منزل جمال. كان خيالا معتما باهتا كأشباح المنازل والأشجار، يجيء ويروح مع هبات الليل الباردة.

أعادت مكالمته من جديد لكنها أخفقت في تلقي الرد ثانية. تناولت حبتان مسكن ألم ثم رمت بنفسها في أحضان النوم.

كان جمال قد أذعن للسفر في صباح ذلك اليوم الذي ظلت سارة تتذكره بعد ذلك أعواماً متتالية كلما حل تشرين. ففور استيقاظه أخذ حماما دافئا وارتدى ملابسه على مهل، ثم وضع ملابسه المتسخة داخل كيس بلاستيكي، وألقى به في قاع إحدى الحقائب. رتب الثياب الأخرى داخل الحقائب، رتب ما يمكن ترتيبه من الفوضى التي

صنعها داخل المنزل، ثم سكب السائل القلوي داخل دورات المياه. غطى الأرائك بالقماش الثقيل منعا لتسرب الرطوبة والغبار إلى داخلها، أغلق أنبوب الغاز جيداً، تفقد صنبور الماء والأجهزة الكهربائية، أغلق غرفة الضيوف وغرف النوم بعد أن وضع حقائبه في غرفة الجلوس وهيأ نفسه للسفر.

أغلق الباب الرئيسي للمنزل، وخرج من الباب الخلفي. اشتم رائحة الأرض كأنه يفعل ذلك للمرة الأخيرة، وأخذ نفساً عميقاً ثم زفره بشدة، خرجت مع زفرته تنهيدة قوية ضاعفت من حجم غربته، ومشى عبر الفناء الخلفي للمنزل حتى وصل إلى منزل السيدة صفاء. قرع الجرس مرة واحده فقط، جاءه على الفور صوت عمته: "تفضل بالدخول".

كانت السيدة صفاء قد رأت جمال قادماً من خلال نافذة المطبخ التي تُطل مباشرة على الحديقة، حين كانت تقف وراء حوض غسل الصحون المثبت مباشرة أمام النافذة. دخل جمال بعد أن نزع حذاءه الأسود، وانتعل آخر مخصصا للمنزل أخرجه من الخزانة المثبتة بالحائط، فقوانين السيدة صفاء صارمة بشأن نظافة البيت، لا تسمح بدخول المنزل ولمس السجاد بالأحذية.

حيّا جمال عمته بقبله طبعها على وجهها بتثاقل، أحست السيدة صفاء بمسحة الحزن تعلو وجهه، بادرته بالسؤال غير مترددة:

- ما بك حبيبي.. ما كلّ هذا الحزن؟
- لا أعلم عمتي.. شيءٌ ما يقبض على صدري ويمنعني من التنفس، أشعر بالضيق.
- يمكنك إخباري حبيبي، هيا سأصنع القهوة أولا ثم نتحدث في هدوء.

- سارة .. سارة يا عمتي، البارحة صرّحت لي أنها لا تريد الذهاب إلى بوسطن، أو على الأصح لا تُريد أن نعيش هناك، لا أعلم كيف تُفكر هذه الفتاة، وأيّ قوة هي التي تدفعها للتمسك بهذا المكان!!.
- لا تلمها جمال، إنه الخوف، نعم .. الخوف ولَّد لديها خاصية التعلق بالأشياء، تحاول الالتصاق بالمكان، بالأشياء خوفاً من فقدها، أنا أعرف طبيعتها جيداً.
- يا عمتي كفى مبررات، ها أنا أمامك، ألم أعش وحيدا؟ نعم أنا لا أنكر وجود والديّ لكنهما كانا موجودين بالاسم فقط، لا شيء كان يجمعنا.
- الأمر مختلف حبيبي صدقني.
- ما العمل إذن الآن عمتي، أرجوك ما الذي عليّ فعله؟.
- رأيي أن تعمل على تمديد إجازتك ومن ثم تتزوجان، وبعدها تحاول إقناعها أن تقضي باقي العام هناك، لا أعرف بالضبط، ثمة هناك مخرج أنا متأكدة.
- لا يمكن ذلك عمتي، لا يمكن. أنا عقدت العزم، سأسافر اليوم، حجزت تذكرتي وانتهى الأمر.
- وهل سارة على علم بذلك؟
- لا، ولا أنوي إخبارها، أو توديعها، وضعتها البارحة أمام خيارين، سأغادر وسأجعلها تختار دون أي تأثير من أي أحد.

- لا أعلم ما يُمكنني قوله لك عزيزي، لكني سأنصحك نصيحة، لا تقتل حبك بيديك، الحبّ يحتاج إلى التضحية، إن هذه الحياة أصغر من أن نأخذها على محمل الجد، والحبّ هو قوتنا حتى نسلم الأمانة إلى صاحبها، فإن نفذ القوت، فَقَدَ كلّ شيء معناه وطعمه، وبدأنا بالتلاشي، فابذل ما في وسعك، لا تترك الحب لتكهنات.

قبل أن تُنهي السيدة صفاء كلامها، تنفس جمال بعمق، ثم وقف، كان إلى اللحظة التي يتحدث فيها إلى عمته، عازما على الرحيل، لكنه الآن بدأ يتعثر.

ودَّع عمته دون رغبة في ذلك، تمنت له هي بـ دورها سفراً موفقاً ورحلة مُيسرة، استأذنها بعد أن حاولت إقناعه بتناول الفطور لكنها فشلت، تعذر بعدم قدرته على ابتلاع الطعام، قال لها أن شيء ما يقف في بلعومه، غصة تخنقه، تُعيقه حتى من التنفس، وخرج كما دخل، مسحةُ الحزن لا تغادر وجهه، نزل الدرج متباطئاً، بينما كانت عمته تقف في أوله من الأعلى تردد: "الله معك."

في الفناء الخارجي تلَّمس الأحجار، قطف حبة زيتون، ضغط عليها حتى خرج منها لُبّها الأسود المائل إلى الحمرة. وقف على ناصية الطريق متسائلاً عن سرَ تعلق سارة بهذا المكان، وعن سرَ تعلَّق قلبه بها. همس في سره: " إنها القلوب التي لا سبيل إلى إحكام السيطرة عليها، تنفلت من بين أيدينا كالماء، الحبّ هو الانجذاب الروحي، هو الانتماء الحقيقي مجرداً من كلّ الشهوات".

انقضى خريفٌ آخر انتهى فيه دور الحب بعد أن أصاب الشك ما أصاب من قلب سارة في الصميم. انقضى خريف آخر كان قد جمع العاشقين جسداً وروحاً تحت سماء واحدة، ضمتهما أحلام واحدة وعقد مقدس لرباط مقدس. وفي تلك القرية النائية

التي لا مجال لوقع الإبرة فيها إلا أن يُسمع، وفي عتمة ذلك الليل الخريفي الفائت الذي ظل وقعه ذكرى مؤلمة تتردد في نفسها آناء الليل وأطراف النهار كلما حل الخريف، انتعلت سارة حذاءها وخرجت من الباب الخلفي للمنزل إلى الحديقة، كان الليلُ حزينا والقمر غائب، وللسكون أصوات موحشة تملأ القلب فزعاً. لكن سارة لم تكن حزينة لحزن الليل ولا فزعة من سكونه، بل تائهة في الظلام مضطربة، لا يعرف الهدوء إلى نفسها سبيلاً. ناجت خالقها في وهن وذبول: " أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ." الأنبياء: 83 ناجت ربها كما فعل يونس عليه السلام: " أن لا اله إلا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" الأنبياء:87.

ثم انتظرت باعاً من الليل ذرفت من الدمع ما شاء الله لها أن تفعل. دخلت منزلها وعادت إلى غرفتها تتنفس بصحبة الورق تحت عنوان:

الفتيلُ الأخيرُ للحب

" تحت وطأة هذا الليلُ السرمدي الذي انطفأ فيه آخر فتيل للحب أو كاد، خرجتُ مضطربة إلى الحديقة. لم يكن في المنزل هواء أتنفسه ولا ضوء أستنير به، وكأن الحياة من حولي قد تلاشت وأخذت طريقها نحو الأفول. عندما أخبرتني عمتي بما حدث وأن جمال الآن في طريقه نحو المحيط، شعرت بقلبي قد صار يابسا جافا يتفتت من حركة الهواء، ثم تأتي قوة ما تُعيد تشكيله ثانية فيصبح كتلة سوداء صلبة لا حياة فيها. رأيت كلّ شيء أمامي قد صار ضبابياً، السماء، الهواء، الأرض والفضاء المحيط بكل شيء، أشباح البيوت والأشجار، أضواء السيارات. رأيت كلّ شيء قد غرق في الظلام وارتدى حلةً سوداءً خافية للمعالم.

رفعت بصري نحو السماء فوجدت النجوم قد اختفت بفعلِ سحر الليل القوي. ثم ألقيت ببصري نحو البيوت البعيدة الصغيرة، بحثت بين أغصان الشجر العارية، وبين حبات التراب العطشى، فوق مآذن المساجد العالية وبين الأوراق المتناثرة، عن نور يعيد تشكيل قلبي فيعود إلى سابق عهده لكني قد وجدت الظلام قد ألقى بردائه فوق كلّ شيء. كانت ليلتي حالكة مظلمة كنصف برتقالة متعفن، وكأن الحداد قد بلع كلّ شيء. الحقول، الوجوه، الأجساد والأرواح. حتى أنفاسي المتصاعدة والهابطة. رفعت نظري إلى السماء ثانية وضممت كفي ثم رددت ما شاء الله لي أن أفعل من الدعاء. بكيت كثيرا، كنت أعلم أن الليل آفلٌ لا محالة لكنه طويل وبطيء، وكنت أعرف أن الصباح آت لا محالة لكنه بطيء وبعيد أيضا."

***

بعد أسابيع من تلك الحادثة جاء نبأ أخبار الابتعاث صادما. كانت الجامعة قد اختارت للبعثة خارجاً شخصاً آخر، زميلاً لسارة حديث التخرج وأقل منها تقديراً وكفاءة. كان الخبر صاعقاً، أحست سارة فيه ولأول مرة بالخجل تجاه وطن يترصد أبناؤه بأبنائه عن طريق الواسطة والمحسوبية.

سارة لم تنتظر، بدأت بمراسلة جامعات أمريكية لغايات إكمال الدراسة في الخارج، قدمت الامتحانات اللازمة للقبول في برنامج الماجستير واجتازتها بتفوق. وفي ليلة من ليالي شباط الباردة جلست أمام مكتبها تحاور نفسها فوق الورق تحت عنوان:

وطني

" أنا أثق بوطني لأنه حتى هذه اللحظة، لا يزال يقف على قدميه رغم ما يُحيط به من انتكاسات، أؤمن كثيراً بقوته لأنه لو لم يكن كذلك لما صمد أمام كلّ هذه

التحديات. وطني قوي جداً وإيماني بقوته ليس له علاقة بأفكار صارت تعكر صفوي بين الحين والآخر. لكن الشك بدأ يساورني حول ما أعتقده من مفاهيم الانتماء والعطاء وأن كلاهما يكمل الآخر ولا وجود لأحدهما دون الآخر. كنت حتى هذه اللحظة متمسكة بحق منحني إياه وطني، لا علاقة للنقود بذلك، أبي ترك لي ما يكفيني للعيش والدراسة من حر ماله، لكنه حقي بالابتعاث هنا وأن أدرس هنا وأكمل هنا، ثم هي أنا من أقرر ما علي فعله. لست عاجزة عن الخروج إلى أمريكا أو كندا برفقة عمتي وإكمال دراستي هناك فقد تقدمت لكافة الامتحانات ونحجت بتفوق، لكن قلبي صار يضعف وها أنا أرسل بطلبات اللحاق ببرنامج الماجستير إلى أكثر من جامعة أخشى- أن أقبل في جامعة بوسطن.

قلت لنفسي:

" إن وطني يرغب بإقصائي، لا يرديني ويريد أشخاصا غيري."

"الوطن ليس أشخاصا يا سارة، الوطن فكرة متأصلة، إيمان متجذر لا يمكن أن يتأثر بموقف أو ردة فعل من أحدهم، الوطن لا يعني المكان بقدر ما يعني ما تقدميه أنت لهذا المكان".

قلت: "وصراعي الآن مع نفسي، رغبتي في البقاء هنا، وغيظاً يأخذني نحو الانتقام لنفسي."

" الصراع مع النفس صراع قائم منذ الأزل ومستمر إلى الأبد. ألم يصارع سيدنا آدم نفسه صراعاً أوقعه في المحظور، كانت رغبته في البقاء في الجنة رغبة حقيقية، لكن شهوة أخرى كانت أقوى من انتمائه، فانتزع الثمرة والنتيجة الحتمية كانت خروجه من الجنة عاصيا."

سألت:"وهل أستجيب لشهوة الإنتقام وأخرج عاصية؟"

"وهل تستطيعين البقاء في الجنة بصحبة الصراع؟"

أجبت: "لا أعلم، لكن قلبي ينفطر كلّما فكرت في ذلك وينفطر أكثر كلما فكرت بشأن الغربة."

" الصعب هو اتخاذ القرار، أما ما يلي ذلك فيهون بفعل الاعتياد والتأقلم."

قلت: "لكني أخشى التغيير، أخاف من الغربة.. أتوجس كلّما انتقلت من مرحلة عمرية إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر. كلّ شي ينتهي يجعلني أتألم، يجعلني أشعر بالحسرة, أنا لا أملك القوة الكافية للذهاب، لا أملك".

"إذن فالوطن هو العادة التي لا تستطيعين تركها، هو نقطعة البداية التي لا تقوين على مغادرتها."

أجبت نافية:

" لا، وطني ليس عادة، أنا أعشق وطني وأقبّل ترابه الذي احتوى والدي ووالدتي، أبجل فيه قوته وصموده ... لكن .."

"لكن ماذا يا سارة،؟..."

أجبت:

"لكني أخشى إن تركته أن لا أعود إليه أبداً."

"إن كنتي ستمتلكين القوة في انتزاعه والخروج، ستمتلكين تلك القوة يوماً ما وتعودين. ستتغلبين على خوفك وهواجسك من التغيير ربما اكتشفتِ أيضا أن الوطن لم يكن إلا كذبة يتوارى خلفها خوفك"."

في تلك الليلة الباردة التي قضتها سارة وهي تحدث نفسها، كان وجهان اثنان يلازمانها، وجه والدها ووجه حبيبها الذي غاب وراء المحيط. في تلك الليلة فقط صارحت نفسها بما تخشاه، أرغمتها على قول الحقيقة وإن كانت حقيقة موجعة.

***

جاء آذار بصحبة الربيع دافئاً، لم يكن آذارا طيباً، فطبول الغربة بدأت تُقرع. حصلت سارة على قبول في برنامج الماجستير من جامعة "بوسطن". أرسل إليها أحد أساتذتها رغبته في مقابلتها على"سكايب". استجابت على الفور وأجرت المقابلة بنجاح. أخبروها أن بإمكانها الانضمام إلى قوافل الفصل الأول.

منتصف الصيف وفي أواخر رمضان وطأت أقدام سارة وعمتها أرض بوسطن. كان سفراً طويلاً استمر لليلةٍ أو يزيد، عندما دخلتا أجواء المدينة كان الغيم الأزرق يملأ السماء. في المطار، أكملتا إجراءات الدخول بيُسر، استقبلهما أحمد الابن الوحيد لزوج السيدة صفاء، أحمد في أواخر العقد الثالث، ذا شعر شائب، أسمر الوجه، عيناه صغيرتان نقيتان، ووجهه ذو لحيته خفيفة وابتسامة صافية. استقبلهما بحفاوة عند وصولهن، قبّل زوجة أبيه من وجنتيها ورأسها واكتفى بالنظر إلى سارة مردداً:" أهلاً سارة كيف الحال." ساعدهما في جر الحقائب إلى المركبة وغادر الجميع أرض المطار الواقع في منتصف شبه جزيرة. وعبر الأنفاق والجسور بدأت رحلة سارة مع التِّيه كما ستُسميها فيما بعد.

ركب الجميع السيارة المركونة أمام المطار، كان الجو دافئ أشبه بربيع الأردن، بادرت السيدة صفاء بالسؤال:

– كيف حالك يا أحمد، آسفتان على اشغالك معنا، أعلم ان لديك عمل الآن.

- ما الذي تقولينه يا خالتي سامحك الله، يُسعدني ذلك والله، أنا في الخدمة دائما، أهلا وسهلا بكما.

- أكرمك الله حبيبي، هيا أخبرني كيف هو عملك؟

- الحمد لله خالتي صفاء، لكن الوضع في أمريكا ليس كما قبل، مايفعله الذين يطلقون على أنفسهم "داعش" كان سببا كافيا في جعل المسلمين أشخاصا غير مرغوب بهم هنا أبدا، أصبحنا مثل اليهود في العقود الماضية، منبوذين عند البعض. الكثير هنا في أمريكا لا يود بقاءنا فيها يوماً واحداً، وما حصل في فلوريدا مؤخرا أثار العنصريين الأمريكان.

- الحقيقة كنا مشغولتين بتجهيزات السفر وتعلم مراسم الوداع وكل هذه الأشياء، ما الذي حدث بإمكانك إخباري؟.

- أعرف خالتي أعرف كلّ ذلك ، سأخبرك الآن، قبل أيام شاب في الإفصاح عن هويته قال أنه مسلم، دخل على نادي ليلي للمثليين ثم دفع ببندقيته نحوهم وقتل منهم ما قتل باسم الإسلام وقد تبنت داعش الحادثة ونسبتها إلى نفسها.

- سلمت يداه نالوا جزاء ما يفعلون.

- لا يا خالتي أرجوكِ لا تقولي ذلك، لسنا قوامين على الناس في دولة غير إسلامية. هنا كلٌ يفعل ما يراه مناسبا له، طالما أنه لا يُؤثر على الآخرين. الإسلام أمر بمحاربة الفساد بالعقل والمنطق والحجة لا بالقتل والتعذيب. ثم إن هذه الفئة من البشر- موجودة في كلّ مكان هنا في أمريكا وفي الأردن وفي كلّ مكان، ولأجسادهم حاجات تختلف عن الأشخاص

العاديين، ليس ذنبهم ما أوجدت الحياة فيهم. هم كـذلك، علينـا تقـبلهم نحن المسلمون وغيرنا كما هم، طالما أنهم لا يُشكلون أي خطـر علينـا، ولا يُلحقون بنا الأذى.

ثم ألم يأتِ اللوطيون على سيدنا لوط يريدون الفاحشة بضيوفه.. مـا كـان رده عليهم؟ ألم يقل لهم بالحسنى:

" قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَـاتِي هُـنَّ أَطْهَـرُ لَكُـمْ فَـاتَّقُوا اللَّـهَ وَلَا تُخْـزُونِ فِي ضَـيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ" هود: 78.

- مهما قلت لن تُقنعني، هؤلاء شواذ وعلى المجتمع التخلص منهم والإسلام حرم أفعالهم الشنيعة.

- أتفق معك على أنهم شواذ وأن الإسـلام قـد حـرّم أفعـالهم، أمـا أن تُقـام الحدود على هذه الشاكلة، بالتأكيد أنا أختلف معك جدا. ثم هل تعلمـين خالتي صفاء أن هناك إشاعة تقول أن والد الشاب مُنفذ العملية قد خرج أمام الناس من خلال الشبكة العنكبوتية وأخبرهم أن ابنه ليس مسلما ولا ينتمي للإسلام ما تفسيرك إذن خالتي؟ وهل تعتقدين أن العالم سيَصدقه؟ أنا أرى أن ذلك مستحيلا. العالم صار يصدق شيئا واحدا فقط، أن الإسـلام دين الحرب والإرهاب والقتل. وهو ليس كذلك بكل تأكيد. ديننا هو دين التسامح والعـدل والمسـاواة، لكـن هنـاك خلـل واضـح في فهـم الخطـاب القرآني الذي أُنزل إلينا، وتقصير كبير في إعطاء ديننا حقه سواء في التعلـيم أو في كافـة مجـالات الحيـاة، لـذلك الـدين في طريقـه إلى الـذبول إذا مـا استمرت سياسات التجهيل.

- آآه يا أحمد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال كما في صحيح مسلم: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء).

نظر أحمد في مرآته الأمامية وقال:

- يبدو أن الآنسة سارة شاردة مع هواء بوسطن؟
- سارة .. سارة أحمد يتحدث إليك . قالت السيدة صفاء.
- نعم عمتي، أنا آسفة لم انتبه لم أكن معكما، أعتذر.
- أخبرتني خالتي أنك ستُكملين دراستك هنا... قال أحمد.
- إن شاء الله سأكمل.
- لن أوصيك، أي مساعدة أنا في الخدمة في أي وقت.
- شكرا لك هذا من ذوقك.

ما تبقى من دقائق إلى الوصول كان الصمت هو السيد. كادت سارة تغفو على حافة النافذة كما كانت تفعل في أثناء عودتها من الجامعة عندما قال أحمد:

- الحمد لله على السلامة وصلنا.
- الله يعطيك العافية أحمد أتعبناك... ردت السيدة صفاء.
- ولو يا خالتي لا تقولي ذلك، أنتِ من رائحة المرحوم والدي، أنت والدتي التي لم تُنجبني. المهم شقتك جاهزة تم تنظيفها وترتيبها وجهزت فيها كلّ ما قد تحتاجينه أنت وسارة. في كلّ الأحوال أنا أنام في شقتي في الدور الثاني، فقط أرسلي إلي رنة واحدة من هذا الهاتف الأمريكي وسأكون بين يديك على الفور.

أخرج أحمد الحقائب من السيارة، وضع يده في جيبه وأخرج منها هاتفا وقال:

"هذا لك خالتي. ليس بـه إلى الآن إلا رقمـي، أضـيفي إليـه مـا تشـائين فقـد أصبح لك. وهذا مفتاح المنزل .

- لا خالتي أحمد لا زلت احتفظ بنسخة منه دع النسخة الأخرى معك.
- تمام إذن سأدخل الحقائب إلى الداخل ونلتقي غدا صباحا.

فتح أحمد الباب الخارجي وأدخل الحقائب وأنار المنزل ثم ودعهما.

عنـدما امتنعـت عينـا سـارة عـن النـوم في أول ليلـة لهـا في "بوسـطن" قـررت النهوض من فراشها لتدون تحت عنوان:

الإرادةُ تغلب الرَّغبة

"هذه ليلتي الأولى التي أقضي فيها ساعات السحر بعيداً عن موطني وأرضي. مذ غادرت بلادي بعد أن داست قدماي آخر موطئا لها في مطار الملكة علياء الدولي، ورأسي يتأرجح في الفضاء وعيناي شارداتان جاحظتان تأبيان الإغماض. سافرت في طائرة تركية تنفست على متنها آخر ذرة اكسجين كانت قد اختلطت بهواء بلادي. غادرت بحزن، كان وجهي قد تبلل مرات كلّما فكرت بما فعلت. وها هو خوفي من الفقد قد أصبح واقعا وأنا اليوم ثكلى بإرادتي مفجوعة باختياري لكني لا أعلم إن كنت نادمة أم لا.

هذه الليلة فقط، عرفتُ كيف للإرادة أن تغلب الرغبة وأن البقاء للأقوى حتى في صراع النفس بين رغباتها وأفكارها. هذه الليلة فقط، عرفت كيف للروح أن تنسلخ

عن الجسد، وكيف للقلب أن ينفصل عن العقل، مع بقاء الإنسان صامداً في وجه الحياة.

الليلةُ فقط، أدركت أن للرحيل الإرادي خصال حميدة فيها العزاء للراحل. منها أنه يحتفظ بحبه وشوقه للشيء الذي ابتعد عنه. فيها أن الألم الذي ينتج عن الفقد ألم حقيقي ذو لذة، و أعظم لذة هي لذة ألم نختاره."

لم تنعم السيدة صفاء وابنة أخيها بنوم طويل، سارعت الشمس سريعاً بنشر أشعتها في كلّ مكان وملأت السماء نورا فعجت المدينة بالحياة والصخب. أحمد اكتفى بإرسال رسالة عبر تطبيق "الواتس أب " لزوجة أبيه للتأكد من استيقاظها، وعندما تلقى الرد سارع بالإتصال فورا ودعاها إلى الخروج من أجل أن تتعرف سارة على المدينة والجامعة التي ستنضم إليها. عندما أخبرت السيدة صفاء سارة بما اقترحه أحمد، رفضت في بداية الأمر لكنها عادت وأذعنت لأن عمتها كانت قد اتخذت قرار الخروج دون أن تُولي أي اهتمام لممانعتها.كان الصباح يميل إلى البرودة قليلا لم تتجاوز فيه العظمى عند الساعة العاشرة خمسة عشرة درجة مئوية. عندما نزل أحمد من منزله لاصطحابهما كانت السيدة صفاء قد أُصيبت بدوار واعتذرت عن الخروج.

"سلامتك خالتي ماذا حدث ؟"

- لا شيء أحمد يستحق القلق، لكنه السفر بالتأكيد وللعمر ضريبة، لا تنس الصوم أيضا، نمنا منهكتين، الحقيقة لم نأكل شيئا. اذهب أنت وسارة ولا تقلقا بشأني.

"لا عمتي أنا لن أذهب إلى أي مكان اليوم، ربما غداً ستكونين أفضل حالاً ونخرج. أنا أيضا اليوم متعبة..." قالت سارة.

- لا تستمع إليها أحمد، قريباً ستبدأ بإجراءات التسجيل وتعبئة أوراق القبول. أخرجا اليوم، دعها تتنفس هواء "بوسطن" وعرِّفها قدر ما تستطيع على المدينة، أنا أعرف سارة جيداً هي خجلة منك فقط.

" عمتي ما الذي تقولينه؟"

- ما أقوله هو الصواب يا سارة فلا تعاندي هيا اذهبا يا أحمد ولا تنس إحضار الطعام مساء اتفقنا؟

وافقت سارة مُرغمة، تسببت عمتها في إحراجها بطريقة مقصودة لم تعهدها منها من قبل. قبلها كلاهما وخرجا.

عند موقف السيارات فتح أحمد باب سيارته الأمامي وقال:

- تفضلي سارة.
- من ذوقك أحمد شكرًا لك.

قبل أن يدير أحمد مفتاح التشغيل سأل سارة إن كانت تفضل الذهاب إلى مكان ما فأجابت بالنفي. اقترح عليها الذهاب للجامعة والتعرف على قريبته المبتعثة هناك من جامعة أردنية، وافقت سارة دون تردد.

أدار أحمد مفتاح التشغيل وهو يردد "بسم الله". وضع حزام الأمان ونظارته الشمسية، أدار المقود لتصبح مقدمة السيارة في الجهة الأخرى، حرك رأسه إلى الخلف ووضع يده أعلى الكرسي الأمامي الذي تجلس فيه سارة، فلمس كتفها دون قصد، اعتذر، أنزل يده وبقي نظره معلقاً إلى الخلف، ثم عدل مسار السيارة وانطلق. نظرت سارة باهتمام إلى الشوارع، أبهرتها الأرصفة النظيفة، المقاعد المنتشرة في كل مكان

والزرع الأخضر على طول المساحات الفارغة بين الأشجار، البحيرات، الأنفاق الطويلة جداً والجسور.

- هل أنت مواليد بوسطن؟... سألت سارة باهتمام.
- لا سارة أنا مواليد عمان، أتيت إلى أمريكا بصحبة والدي من أجل علاج أمي إثر مرض ألمَّ بها. كنت في الثامنة حينها، لكنا وصلنا أمريكا متأخرين. كان المرض الخبيث قد نال منها بعد شهر من وصولنا، لم يُمهلها وكأن الموت كان بانتظارها في بوسطن. غريبة هذه الحياة يا سارة، منا من يفرّ طلباً للحياة في آخر بقاع العالم ليجد الموت ينتظره ويبتسم له. ماتت أمي هنا ودُفنت هنا في "بوسطن" في يوم بارد ومُثلج. لم يكن أحد في المقبرة سوى أبي وعمك أبو جمال وسبعة من المسلمين العرب هناك. حينها كان أبي موجوعاً جداً، متعباً ومثكولاً، قضينا ليلتنا في بيت العم أبا جمال تعرفنا على الخالة صفاء التي كانت في زيارة لبوسطن، أبي رفض الرجوع إلى الأردن، لم يستطع استيعاب فكرة الرجوع وحيداً، وجد عملاً مؤقتاً في بداية الأمر، ثم ساعده العم أبو جمال في إيجاد عملا في إحدى شركات الطيران في "بوسطن" وحصل على فيزا للإقامة. بمرور الأعوام حصلنا على جواز سفر أمريكي. بعد ثلاثة سنوات من وفاة أمي تزوج أبي من الخالة صفاء في أول زيارة له للأردن وها أنا الآن أمامك في "بوسطن"، وحيداً وأبدو أني سعيد في وحدتي. طبعاً أنا متأسفٌ جداً على كلّ هذه الثرثرة الزائدة، حكيت لك قصة حياتي. ههه، نحن هنا نشتاق أن نتحدث عن أنفسنا، نشتاق للغة التي بدأنا بنسيانها. المهم، نسيت أن أسالك كيف

وجدت المكان؟ هل أعجبتك بوسطن؟. "بوسطن" بلدٌ جميلٌ جدا فيها ما لا يوجد في مدن كثيرة، أهم ما يميزها العلم الذي تنتجه، جامعاتها من أشهر الجامعات في العالم كذلك مستشفياتها. هنا الأشخاص مثل النمل، عمل ودراسة، عمل عمل، كم هذا مُمل. فيها أيضا كلّ شيء تبحثين عنه، مساجد، متاحف، حدائق، أنهار، والأفضل من ذلك كله، الناس هنا متحضرون جداً، متعلمون مثقفون. يا إلهي فلتسامحيني سارة أتمنى أن لا أكون ثقيل الظل عليك، أنا أعرف نفسي جيداً أثرثر كثيراً، أعدك سأصمت إن كنت قد أزعجتك.

- سامحك الله يا أحمد، ما من إزعاج أبداً، في كلّ ما تقوله الإفادة لي، أنا أريد أن أتعرف على كلّ شيء هنا.

- أفهم من ذلك أنك تودين البقاء هنا أم أنك ستكملين دراستك وتعودين؟ أريد أن أخبرك شيئاً، في هذه البلاد سحرٌ غريبٌ يجتذب كلّ من يصل إليها.

- الحقيقة لا أعلم يا أحمد، كان قراري بالمجيء إلى هنا قراراً مفاجئاً من تلك القرارات التي نأخذها دون تفكير، دون توقف للحظة. ولو كنا قد فعلنا لأخذتنا رغباتنا في الحياة نحو منحى آخر. أنا أكره الغربة أحمد، أكره أن أعيش خارج موطني، خارج مكان عشت فيه طفولتي واعتدت عليه بما يكفي لأن أتعلق به، لكن ما جرى في الآونة الأخيرة من أحداث جعل عمتي تفقد صوابها وتصرّ على الرحيل بأيّ طريقة.

- عن أي أحداث تتحدثين؟ تقصدين علاقتك بجمال أم ما يجري في سوريا وفي المنطقة ككل؟ نسيت أن أقول لك أن خالتي تؤثر لي بكل شيء في البلاد.

- نعم أحمد أتحدث عن كلّ عن تلك الأحداث في موطني وفي نفسي. أنت تعلم ما يحدث في البلاد، لكن أشدها كان ذلك الذي شهدته.

- شوقتني، هيا أخبريني فالطريق إلى الجامعة ليس طويلا، لكن الأزمة هنا خانقة، والمسافات هنا تأخذ أضعاف الوقت الذي تستحق لقطعها، فلنقطعها بالحديث إن رغبت في ذلك طبعاً.

- أنا أتحدث عن الأحداث التي حصلت في إربد مطلع آذار، كنت موجودة هناك آنذاك. كان الوقت مساءً عندما داهم الجيش منطقة حنينا وأنا في زيارة لإحدى صديقاتي في الجامعة التي أصرت يومها أن أتناول بصحبتها طعام الغداء وفي بيتها. عندما هممت بالخروج ،كان الجيش قد أحاط بالمنطقة، حاولت لكن أحد العناصر دفعني إلى الداخل، وتم التعميم بواسطة مكبرات الصوت عن حظر التجول وعن خطورة الخروج من المنازل لغايات الآمان.

- نعم نعم تذكرت ذلك، أكملي ثم ماذا؟.

- اتصلت بعمتي وأخبرتها بما يجري، كادت أن تفقد صوابها، صارت تصرخ وتلعن وتسبّ البلد وكل من يعيش فيها. يومها حاولتْ هي الوصول إلى المنطقة لكن الأفراد منعوها وعادت مكسورة هائمة على وجها. بقينا حتى بعد منتصف الليل، تارة ينقطع التيار الكهربائي، وتارة يعود. كنا لا نسمع

غير صوت الرصاص، عند الفجر أعلن عن انتهاء العملية وأنه تم القبض على الخلية الإرهابية الداعشية التي كانت تُخطط لتفجير بعض المباني في مدينة إربد. تابعتُ الأخبار عبر الفيس بوك ورأيت الجثث والأشلاء وأعلن عن استشهاد قائد العملية، وإصابة بعض الأفراد. طمأنت عمتي عند الفجر أن كلّ شيء على ما يرام وأن الخطر في زوال. قالت لي أنها تكاد تموت خوفا من أجلي، طمأنتها ثانية أن لا شيء يدعو إلى القلق وكل شيء قد انتهى. عند السابعة صباحا كان قد سُمح لنا بالخروج. ودَّعت صديقتي، وعائلتها، أصر والدها أن يُوصلني إلى مجمع الحافلات، رفضتُ في البداية لكنه أصر، خرجنا إلى الشوارع التي كانت خالية تماماً إلا من مخلفات العملية من دخان وأبخرة مليئة بالبارود ونفايات العراك. كان المكان مُعتما قاتما وكأن الموت قد استراح فيه. مشيت ما يقارب نصف كيلومتر برفقة الرجل الستيني أحسست بالشفقة تجاهه، كان مُنهكا جدا مُتعبا وكان الخوف قد نال منه ما نال. ظلت الشوارع فارغة، وللحظة، تخيلت أن تلك العملية لم تكن في هذه المنطقة فقط وإنما في كافة أنحاء الدولة. عندما وصلنا الشارع العام بدأت الحياة تدب في المدينة. أوقفتُ سيارة أجرة وودعت الرجل وشكرته ثم رجوته أن ينتبه على نفسه وعلى أسرته وبدوره ودعني بالدعاء. وصلت المنزل عند الحادية عشرة كانت عمتي تقف في الشارع أمام المنزل تضرب كفاً بكف. عندما رأتني هرعت نحوي، يُحيط بها مجموعة من السيدات والرجال، حضنتني بقوة، حلفتْ بملء فمها أنها لن تبق في البلد يوماً واحداً، وهي تردد "لا استقرار هنا لا استقرار". بعد الحادثة حاولتُ إقناعها أن ما يحدث في مصلحة البلد وأن

جنوده البواسل يبذلون الغالي والنفيس في سبيل حماية الأرض والعرض والنفس، لكن شيئاً لم يدخل إلى رأسها وبقيتْ أياماً تتعثر بذات الحديث عن السفر والهجرة لكني لم أعر لحديثها اهتمام، حتى جاء رمضان وتتالت الأحداث سريعاً عن انفجار السيارة المفخخة على الحدود الأردنية قُرب مخيم الزعتري والتي أسفرت عن استشهاد ستة من الجنود على الحدود. ثارت حفيظة الأردنيين حينها وغلبت عصبيتهم هدوءهم. نشبت في القرية مشادة ٌكلاميةٌ بين سوريين وأردنيين في إحدى متاجر القرية الصغيرة، كان سببها اتهاماً قذفت به امرأةُ أردنيةٌ في وجه إحدى السوريات هناك، قائلة أن ما يحصل في البلد سببه السوريون، وأن دماء الشهداء الذين قضوا نحبهم في رقابهم. الحقيقة أحمد أننا نحن الأردنيون اليوم تائهون أكثر من أي وقت مضى، نتخبط وسط دائرة تُحيطها النار من كلّ الجهات، مشاعرنا حقيقية، لكنها تُستثار بكلمة، بلحن، بهتاف، بدمعة، بضحكة فما بالك بصرخة. بتنا لا نميز الخطأ من الصواب. نظرتنا خائفة مُضلّلة من مُروجي الفتنة والانتماءات المتطرفة، نحن اليوم بحاجة إلى جرعات من مُوسّعات الصدر والعقل حتى لا تضيق البلاد بنا وعلينا. نحتاج إلى رمي كلّ تلك الانتماءات الدينية والوطنية خلف ظهورنا، نحتاج القوة وا لعزيمة لنَبذ التعصب بكافة أشكاله والالتفات فقط إلى انتماء واحد وهو إنسانيتنا التي بها فقط نحيا ونتوحد. لكن هيهات، حتى أنا أحمد من الأشخاص الذين نشأوا على ذلك، وترك الانتماء لوطني يعني أني سأخونه، وأنا لا أحب الخونة.

كانت عمتي قد رتبت كلّ شيء، عندما علمت بحصولي على القبول من جامعة بوسطن، سافرنا في صبيحة يوم رمضاني دون تفكير أو مُراوغة وها أنا كما أنت هنا يا أحمد لكني لا أعلم إن كنت سأمضي وحيدة أم لا .

- سارة هل لي بسؤال فضولي؟ .. بالمناسبة هنا الأمريكان لا يسألون عن شيء لا يعنيهم، ولا يتدخلون في تفاصيل حياة غيرهم مهما كانت كبيرة أو صغيرة، هناك دائماً مساحة تفصل كلّ منهم عن الآخر لتجنب الاصطدام لكنني عربي هاهاهاها والفضول سمتي.

تبسمت سارة:

- اسأل ما يحلو لك أحمد، ليس في هذه الحياة ما يستحق أن يُخبأ.
- ماذا عنك وعن جمال؟ أقصد ماذا عن علاقتكما المؤجلة؟ أخبرتني خالتي صفاء مؤخراً بكل ما حدث. هل ستبقين في عصمته؟ يا إلهي أنا أعتذر سارة جداً ربما لم أحسن صياغة السؤال جيداً انسي- الأمر من فضلك لا أريد أن أعرف شيئاً.

سارة وضعت باطن كفها على فمها واتكأت على النافذة، صمتت لبرهة واعتدلت في جلستها ثم قالت:

- لا أحمد لم يزء جني ذلك أبداً، لا بد لهذا الموضوع أن يُطرح يوما ما فلا تتعتذر عن شيء، أنت لم تُخطئ.
- أنا لم أنوِ سؤالك والله، لكني وددت فتح نافذة للحديث لإخبارك أن جمال يتردد على "بوسطن" باستمرار، نعم لقد رأيته أكثر من مرة في

إحدى المؤتمرات التي تُنظم هنا، كما تعلمين "بوسطن" بلد العلم، وجمال وسيط لشركة مرتبطة بعدة مشاريع هنا والطبيعي تواجده في أكثر من مكان.

- هل تتكلم بصدق أحمد؟ هل فعلاً جمال يتردد إلى هنا؟ أخبرتني عمتي أنه غادر منذ أشهر إلى مدينة أخرى. أخبرني كيف هو؟ كيف هي صحته ما هي أخباره، من فضلك أحمد أخبرني بكل شيء.
- سارة على رسلك. هو بخير اطمئني، وإهدأي، وسيكون كلّ شيء على ما يرام.
- أحمد أنا متأسفة اضطربت قليلاً. الْتمس لي عذرا من فضلك.
- ما ذلك الذي أخبرتني به خالتي؟ ما كنت أعلم أنه لا يزال يأخذ كلّ هذا المكان من قلبك، وها أنا أنفض الغبار عنه وإذ به يقف واثباً.
- ليس كذلك أؤكد لك، ما يربطني بجمال الآن ليس أكثر من ورقة ستسقط بالتقادم.
- واضح واضح... قالها أحمد بنبرة يظهر فيه عدم التصديق.
- أحمد صدقني أنا الآن لست أكيدة من أي شيء، أتيت إلى "بوسطن" بعد أن شعرت بوطني يضيق، هربت وغادرته لتبقى صورته نقية ورائحته في أنفي زكية. أتيت دون رغبة، دون أحلام، جميعها أودعتها هناك في وطني رهينة. لست متحمسة لشيء هنا، لست متحمسة للعمل أو الدراسة أو حتى الحياة، وإن كنت أفعل كلّ شيء لكني أفعله مُرغمة، تحملني الأيام وتسيرني. صدقني محظوظون هم الحالمون لأنهم محكومون بالأمل،

وعزاءهم المستقبل، وأنا كان لدي أحلام لكني لم أملك القوة لتحقيقها فأضعتها وأضعت نفسي- وها أنا الآن أمامك مجردة من كلّ شيء، لا مستقبل أمامي ولا ماض يجذبني وحاضري فارغ من كلّ شيء.

- هل أستطيع القول أن زواجك بجمال لن يكتمل؟
- صدقني إن قلت لك لا أعلم، كلّ شيء الآن مرهون للأيام، وللأيام مشيئة فلندع الأيام تفعل ما تشاء.

مساءَ بعد أن تناول الجميع إفطار رمضان ، استأذنت سارة ودخلت غرفتها وجلست تكتب تحت عنوان:

الحقيقةُ في باطنِ الأشياءِ لا على سطحها

" لم يكن يومي جيداً، خرجت برفقة أحمد رغماً عني، كنت مُتعبة من السفر وجسدي بالكاد يقوى على الو قوف. لكن عمتي قد أحرجتني بأسلوبٍ لم أعتده منها من ذي قبل لغايةٍ خفية في نفسها وأحسب أني قد فهمتها من أسئلة رفيقي المتكررة. عندما خرجت، أبهرتني المدينة، كانت جميلة، وافرة النقاء كلوحة فنية رُسمت بعناية فائقة، خُطَّت فيها الشوارع وغُرست الأعمدة والأبنية الأنيقة والبحيرات بطريقة غاية في الترتيب وكأن كلّ شيء خُلق ليكون في مكانه.

أحمد وخلال مرورنا من كلّ شارع، كان يُلقي علي ببطاقات التعريف الشفوية الخاصة بالمدينة، "هنا مطعم كذا، هذا القطار ذو اللون الأزرق يوصل إلى منطقة كذا وذو اللون الأخضر إلى كذا وهنا..... هذه كامبريدج وهذه جامعة هارفارد، وهذا النورث إند فيه ما تحتاجين من مطاعم ومقاهي، انظري هناك، هل رأيت السفن والميناء؟".

عرّفني على أماكن كثيرة، لم أنتبه كثيراً لما قاله، الحقيقة كنت ممتنة للطفه وذوقه لكني استأت كثيرا من أسئلته الفضولية غير المبرّرة وكنت مستاءة أكثر لأني اضطررت أن أصطنع الحديث وأفتعله. كنت أرى نفسي إلى جانبه عجوزاً في السبعين، غير قادرة على فعل شيء. لا رغبة لدي في الحديث أو التبسّم أو التعرف إلى معالم المدينة رغم جمالها ونظافتها. ربما لم يكن لدي رغبة في الحياة ككل. أحمد شاب جامح مفعم بالنشاط والحيوية، أعذب ما فيه ابتسامته النقية. سرعته في تخطي العتبات والخطوات مذهلة، يكره الانتظار لكنه ليس ملولاً، بل صبور جداً، والأهم من كلّ ذلك أنه واثق من نفسه ويعرف ما يريد. عندما سألني عن جمال انخطف لوني وتعثرت بنفسي. تلعثمت واضطربت، فلاحظ اضطرابي. أحسست لوهلة أني أتبخر وأتبدد من أمامه، شعرت أني أتعرى، أنتزع عن نفسي كلّ أغطيتها. عندما أوصلني بهوِ الجامعة، هاتف صديقته جنى وأسلمني إليها بكلمتين: "لن أوصيك بها". قالت له: "لا تقلق أحمد إنها في عيني."

شعرت أن شيئا ما يربطهما غير المعرفة والصداقة. لا أعلم كيف أحسست أني إحدى موضوعاتهما المشتركة، شيئا ما لم يرحني في ذلك، وخفت إن اتبعت حدسي أن يوقع بي. جنى أيضا مليئة بالحياة، ابتسامتها عريضة، ووجهها طفولي، بشرتها ناعمة جداً. عندما تضحك تفتح فمها كله، فتظهر أسنانها جميعا بما فيها الأضراس الداخلية. كانت تبدو سعيدة بلقائي، الحقيقة أن كلّ الوجوه التي رأيتها اليوم كانت تبدو كذلك، كان للجميع ابتسامات مشرقة وأعين تشع بالأمل. بعد أن تعارفنا سألتها عن سر الوجوه المبتسمة هنا أو تُراها الصدفة؟ ضحكت عاليا، فتحت فمها دون خجل ثم رفعت رأسها عالياً وأنزلته أرضاً وهي تضرب كفا على كف. خجلت من نفسي، اعتقدت أني كنت ساذجة حين سألتها.

اعتذرت وهي تضحك عن عدم قدرتها على تمالك نفسها، ثم أجابت ببساطة: "لأن الإنسان هنا صافي الذهن، وقلبه لم يُلوّث بعد".

عدت أسألها: " كيف ذلك .. لم أفهم."؟

" اسمعي سارة. الناس هنا لا يفكرون إلا في شؤونهم فقط، يفعلون كلّ شيء بحب، بدافع ذاتي لا مجبورين ولا مُرغمين، نشأوا على حرية الاختيار، الحقيقة أنهم يستمتعون بكل شيء يفعلونه هنا .. دراستهم، عملهم لا يشعرون بالضجر إزاء ما يجب عليهم القيام به، لا نهاية لديهم لأي شيء، فهناك دائماً أمل، عطاؤهم ذاتي، أي أنهم غير مضطرين لخوض علاقاتٍ طويلة عريضة من أجل أن يُجاملوا شخصاً ما، أو من أجل عادات وتقاليد. لذا هم سعداء والسعادة تجلب النقاء".

قلت لها بتعجب:

"نقاء!! كيف كذلك والحروب التي قادتها هذه البلاد ضد العراق، وما تفعله الآن في سوريا ومساندتها لليهود ضد بلدك فلسطين كلّ هذا وتقولين نقاء..!"

" لا سارة .. لا تخلطي الأمور، أنا الآن أحدثك عن شعب وبالطبع دون التعميم، ولا أحدثك عن دول وسياسات وحكومات. العالم يحكمه قوى أكبر من أمريكا".

بقيت طوال الوقت أفكر في حديثها وأتساءل كيف لنا نحن العرب أن نرى الأمريكان على هذه الصورة بينما نرى بعضنا غير ذلك.؟

مشينا في مرافق الجامعة والكليات والمستشفى التابع لها، وقبل أن نصل آخر محطة دق جرس هاتفها، أجابت المتصل أنها ستُصلّي وسننزل في الحال ففهمت أنه أحمد. سألتها عن مكان الصلاة، فمشت بي داخل المستشفى نحو مكان غاية في الجمال. عندما وصلنا قالت: "هذا هو مكان عبادة للجميع، لكل الديانات". كانت

الكراسي فيه تصطف خلف طاولات يعلوها مزهريات مُلئت بالزهور والشمعدانات، بينما فُرشت الأرضيات بسجاد حريري مُلون ومُسطَّر على شكل معينات. سألتها عن كونها غير مُحجبة فأجابت : "كم أنت لطيفة يا سارة وما علاقة الحجاب بالصلاة؟" ثم أخرجت لباس الصلاة من حقيبتها، كان قطعة واحدة تستر الجسد من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين ثم قالت: "هذه غطاء صلاتي وأتمنى أن يأتي اليوم فيكون هو لباسي. سارة، إن الحجاب لا يعني أن تقوم بكل العبادات والعكس صحيح. ألَّا تتحجبي لا يعني أنك تُ هملين واجباتك الدينية الأخرى، جميعنا يُخطئ في أشياء ويُصيب في أخرى، يأتي بمعروف ويأتي بمنكر و" كل ابن آدم خطاء، وخير الخاطئين التوابون". أليس هذا حديث رسولنا الكريم صلوات الله عليه.؟"

سألتها ثانية: " وهل هذه يعني أنك تفصلين الحياة عن الدين ؟"

" أبدا، الدين جاء لتقويم الحياة ولا يُمكن الفصل بينهما. كلّ ما في الأمر أني أستطيع أن أتبع بعض تعاليم الدين ولا أستطيع أخرى وأعرف تماماً أني سأجازى عن الاثنتين. لا تنسي سارة .. لا يجب عليك أن تحكمي على الإنسان من مظهره. المظهر العام ليس أساسا كافيا لنحكم به على الناس، والنظرة الأولى ليست بالضرورة هي النظرة الصائبة."

أذهلني تفكيرها وطريقتها في الحديث، لأول مرة شعرت أن في داخلي شخص لا أعرفه، شعرت كم كنت متعصبة، ومنتمية لشيء أجهله. أدركت أن على الإنسان أن يبحث ويتقصى عن كلّ الأفكار التي تُزجى إلى عقله، أن لا يأخذ من الأشياء سطحها، فقد يكون ظاهرها براقاً لكن عُمقها نتن جداً.

***

جاء الخريف مسرعاً، أرخت غيومه ظلالها فوق أرض "بوسطن" بعد أن كانت قد ملأت سماءها ضباباً. هبت فوق أرضها رياح غربية قادمة من المحيط محملة بنسيم البحر، امتلأت على إثر هبوبها المدينة بالبرد فسَرت في أنحائها قشقريرة، ارتجفت لها ارتجافة المريض المصاب بالحمى.

كانت سارة فيما تبقى من أيام الصيف قد أكملت ما يجب عليها إكماله من إجراءات الالتحاق بالجامعة، ساعدها في ذلك مجموعة من الطلاب العرب والأجانب الذين يقومون بمهمة تعريف الطلبة الجدد على الجامعة وقوانينها وكل ما يلزم في بداية مشوارهم الجامعي. قامت أيضاً بالالتحاق بدورات تعليم اللغة الإنجليزية وذلك لإتقانها باللكنة الأمريكية ليسهل عليها التعامل مع الجميع. وفي مساء ذلك اليوم الذي أفتتح فيه مهرجان بوسطن الفلسطيني جلست سارة فوق سريرها تدون تحت عنوان :

جمال، اشتقت إليك لكنه الماضي.

" جمال يجلس خارجا في غرفة الجلوس بينما أنا أذود بالظلام مختبئة بين ثنايـاه. رأيته عند الصباح يدخل قاعة المعارض في متحف الفنون الجميلة في مدينة الأحلام بوسطن، خفق قلبي كفراشة بينما جمدت مفاصلي فلم أقوَ على الحركة. شعرت لوهلة أن القاعة التي كانت ممتلئة منذ لحظات قد أصبحت الآن فارغة وأن كلّ شيء فيها قد سكن سكون الموت ووجدت نفسي في مواجهته وجهاً لوجه. خانتني قدامي، وشعرت بالتصاقهما بأرضية الصالة فلم أستطع الحراك. أما أذناي فشعرت أنهما قد صُمتا عن سيدة أتذكر أنها كانت تسألني عن شيء لكني لم أكن أملك وعياً كافياً لإدراك ما كانت تقول. بقيت متسمرة في مكاني وعيناي في شرود من كلّ شيء إلا من وجهه المضيء.

دخل واثقاً متزناً كعادته، كان وجهه مشرقا، عيناه لامعتان شديدتا التركيز، كان يضع كفه الأيمن أسفل صدره بينما تنحني ذراعه كخطاف تمسك به عمتي. بعد إن استرددتُ وعيي، خطوت نحو هما ببضع خطوات وعندما أصبحنا متقابلين، مد يده مصافحاً ففعلت، ثم اقترب مني وقبلني أسفل عيني فانتفضت. لاحظ ذلك، فعلت وجهه صفرة وكدرة أخذت بإشراقة وجهه. سألني عن حالي فأجبت بارتجافة : "الحمد لله" ولم أبادله السؤال، لكني وددت في تلك اللحظة أن أعانقه بقوة وأرمي بجسدي فوق صدره وألتصق به وأصرخ اشتقت لك، لكن الماضي عادني فخارت قواي وضعفت إرادتي فكنت أضعف من أن أفعل ذلك بكثير.

جلسنا ثلاثتنا حول إحدى الطاولات، كنت في الحفل ولم أكن هناك. كنت أنظر إلى الفتيان والفتيات وهم يؤدون الدبكة الفلسطينية، كانت أكتافهم ملتصقة وكفوفهم متشابكة، يتمايلون إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم يرفعون أقدامهم بهدوء ويعاودوا رطمها بالأرض. تلك الرقصة التي لا تدل في مفهومها إلا على الالتصاق بالأرض والانتماء إليها. تفاعل أحمد مع فقرات الحفل الذي جاء متأخراً بينما بقيت أنا وجمال وعمتي صفاء صامتين بلا حديث أو حراك. عندما انتهت بعض الفعاليات دعانا أحمد إلى تناول طعام الغداء في مطعم(استنابولو). وافقت عمتي دون تردد، وصلنا عند الساعة السابعة، كان للمكان الطابع التركي والسوري، بطريقة ترتيبه للمقاعد، ثم المقاعد الثابتة والمنجدة بتطريز تراثي، اللوحات التراثية المعلقة وأوعية القهوة العربية، السجاد الأحمر عند الاستقبال. وقبل أن يصل الطعام الذي اخترناه إلى الطاولة التي جلسنا حولها، أُصبت بدوار ثم فقدت وعيي. استيقظت، كان رأسي في حجر جمال ففزعت. سمعت صوت عمتي: "بسم الله عليك سارة" فهدأت، أدركت بعدها أنني أُصبت

بإغماءة وأن جمال هو من حملني إلى السيارة بعد أن تم إسعافي داخل المطعم الذي كنا نجلس فيه."

***

تشرينٌ أخير

عندما حل المساء وأسدل الليل ستاره خلف النهار، أنيرت المدينة بقبس من نور. ظهرت كنجمٍ متوهج أو ككرة بيضاء لامعة في يوم مُغبر ومعتم. كانت سارة لا زالت تتدثر بملاءتها، ترسم مشاعر احتوتها في ذلك النهار على الورق، دخل جمال غرفتها بعد أن استأذن .

- كيف أنت الآن يا سارة, هل أصبحت بخير؟

كانت سارة قد خبأت أوراقها تحت وسادتها فور رؤيتها جمال. ضمت قدميها إلى صدرها ووضعت رأسها قرب ركبتيها.

- أرجوك سارة عندما أتحدث إليك انظري في عيني.

- لم يبق لدينا ما نتحدث عنه جمال.

- سارة لا أعرف لمَ تقسين على نفسك وعليّ كلّ هذه القسوة، لطالما كان قلبك ملاذي الوحيد. سارة أعطني فرصة أخيرة من فضلك لنتحدث وأعدك أني لن أخذلك أبدا.

- جمال لا تصعب عليّ الأمور. فات الأوان وقلبي الآن لم يعد يقوى على حرب أخرى. من فضلك جمال أعتقني من هذا الحب، حررني كي أحيا بسلام بعيداً عن أغلالك. هبني حريةً أنعم بها أو أشقى فيها فقط حررني أرجوك.

جمال أنا لست غاضبة منك ولا أحمل في قلبي ضغينة تجاهك، لكن القدر قد قال كلمته بعد أن قلتها أنت أولاً وانتهى الأمر. نحن لم نُخلق لنكون معاً في أي وقت أو في أي مكان، وأنا الآن فقط أشد على يديك، وأكرر ما قلته أنت سابقا، نحن لم نُخلق لنكون يوماً معا. لن أعاند ولن أقف في وجه الأقدار.

- سارة .. لكن الحاجز الذي كان يمنع لقاءنا قد تكسر، وها هي الطريق التي تصلنا إلى بعض مفتوحة لا عراقيل ولا مطبات. الوطن الذي كان يفصلنا أصبح بعيداً، وأنا اليوم هنا بجانبك .. فلمَ لا نعود ويعود الحب؟
- حسنا جمال، ربما أصبح الوطن بعيداً، لكني أنا أيضا بعيدة. لا يغرنك وجودي هنا، أنا هنا جسد من غير روح، جسد تعصف به رياح الغربة، أما روحي فهناك معلقة في مكان آخر غير هذا المكان.
- يا سارة أرجوك لا تعقدي الأمور، أعدك أن أنسيك كلّ ألم قد سببته لك، أعدك أن أجعل من السعادة طوقاً حول عنقك وتاجاً فوق رأسك. المهم أن تغفري لي. ألستِ من أنصار التسامح؟ ألم تقولي أن التسامح من صفات الأنبياء متى ما انغرست في نفوسنا طابت وارتقت؟ ألست محدثتي عن قول الله تعال" والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس"؟ ألستِ من تلا على مسامعي "أن الله يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به؟" إذا كان الله الواحد الأحد يغفر الذنوب جميعا، فكيف أنت سارة أمة الله؟. لا تستغربي هذا هو حديثك أنت، تذكري ما قلته لي من أعوام، أنا أذكرك به فقط، ما عليك معرفته أن الإنسان يتغير كما هي الظروف والزمان والمكان.

- لكني غفرت لك مرتين جمال ألا يكفي ذلك؟ ورغم كلّ ما حدث ها أنا أغفر لك ثالثة وغفراني لك الآن لا يعني أن نعود. جمال صدقني أنا متعبة جداً، روحي تتآكل يوماً عن يوم، وقلبي لم يعد يشعر بشيء، أرجوك جمال امنحني بعض الهواء أتنفسه من دونك، دعني أعيش دون الخوف منك ومن مزاجك المتقلب، اتركني أحيا من دونك وليكن هذا هو قراري الأخير.

- سارة لا تكابري، أعلم جيدا أنك لا زلت تحبينني كما أني لازلتُ أعشقُكِ فلنجعل قدرنا هو الحب، الحب فقط سارة. لنفتح له قلوبنا ونستقبله بصدرٍ رحب دون مخاوف أو هواجس. لنغذّيه منذ هذه اللحظة أرجوك سارة .. أرجوك.

أنا أعلم أنك تتألمين الآن، لكنك ستتألمين أكثر إن قررتي أن نفترق وستتألمين أكثر عندما تعلمين أني سأموت قريباً إن حصل ذلك.

- لا تقل هذا جمال أرجوك، صدقني لا أحد يموت بفراق أحد إلا إذا قرر ذلك هو بنفسه. أنا أكيدة أنك ستحيا وستُحب وستتزوج وسأفرح لك. جمال لا حاجة لك بي الآن، أحس بكل شيء في جوفي قد ذاب وتفتت. أنت لست بحاجة إلى رفات، أنا الآن رفات لأسباب ربما قد لا تكون كافية.

صمتت للحظة ثم تابعت:

- من أجلك فقط سأمنح نفسي فرصة أخيرة للتفكير وسنتحدث غداً.

ابتسم جمال ابتسامة عريضة:

- نعم .. نعم .. هذه سارة التي أعرفها، وأنا في انتظارك غدا سأنام الليلة في شقة أحمد ونلتقي عند الصباح.

وضع كفيه على كتفيها وضغط عليهما بقوة، قبّلَ جبينها وخرج.

عند الصباح التقى الأربعة على مائدة الإفطار، وبعد أن تناولوا القهوة استأذن جمال عمته في الخروج بصحبة سارة. وافقت السيدة صفاء على الفور بينما علت ابتسامة صفراء وجه أحمد.

بعد أن ودعا العمة خرجا، كان الجو بارداً والسماءَ مزدحمة بغيوم الخريف الموشكة على الهطول. تنفست سارة بعمق ثم ركبت السيارة.

بعد أن أدار جمال المحرك بادرها بالسؤال:

- أتمنى أن تكوني قد نمتِ جيداً.
- نعم جمال .. نمتُ جيداً.
- إلى أين تودين الذهاب؟ هل من مكان في "بوسطن" تُحبينه؟
- لا أبداً، اختر أنت، فلك خبرة في المدينة أكثر مني.
- ما رأيك في الذهاب إلى حديقة (كاسل أيلاند)؟ إنها حديقة خضراء جميلة جداً، وتُطل على البحر.
- حسناً كما تشاء.
- إذن علينا الالتفاف من هنا قبل أن ندخل في الزحام فلا نخرج منه لساعات.

بدا جمال سعيداً وآملاً. لم تفارق ابتسامته وجهه، ولا نظرته العابثة عينيه، كان وجهه في ذلك اليوم مُنيراً مُشرقاً، وشفتاه لم تتوقفا عن الدندنة بنغمات غير مفهومه.

عندما سألته سارة عنها، قال لها أن غناءه لا يخرج إلا أمام خاصة من الناس، أجابته: " ألست من الخاصة؟"، ضحكَ وغمز بعينه وقال: "أنت من ستقررين يا سارة".

كان جمال يتحدث بثقة كعادته، مُتحدياً زماناً انقلب في النهاية إلى جانبه. وفخوراً بمكان كان اجتماعه بسارة فيه ضربا من المستحيل.

وصلا الحديقة وركن سيارته على الجانب الأيمن من الشارع، ثم ترجلا. مشيا متجاورين إلى الجهة المقابلة. جلست سارة على أحد المقاعد المُطلة على البحر وجلس جمال ملاصقا لها تماما. بقيا صامتين لدقائق. كانت السماء قد تبددت غيومها وصفَت فظهرت الشمس ساطعة ودافئة.

كانت الحديقة خضراء من أولها إلى آخرها يكسوها النجيل ما عدا الممشى المتدّ على طولها، ويُحيطها البحر من كلّ الجهات كأنها جزيرة.

بادرها بالحديث:

- هيا سارة أنا أسمعك الآن.
- جمال أنا لا أعرف من أين أبدأ حديثي، لكني سأصدقك الحديث وربما لن أكون يوماً صادقة أكثر مما سأكون عليه الآن.
- تفضلي سارة أنا أنصت إليك بكل جوارحي.

- جمال أنا أريد اليوم أن تسمعني بعقلك فقط، فأنا الآن أخاطبه، لا أريد أن تختلط الأفكار بالمشاعر فتعود الحرب بين العقل والقلب من جديد، إنها حرب عنيفة جمال، أجلها طويل وعادة ما تنتهي بالهزيمة للطرفين.لقد كذبت عليك عندما قلت لك أني نمت جيدا، فالحقيقة بت ليلتي متيقظة أفكر. لم يغمض لي جفن حتى بزغ الفجر. وضعت كلّ الماضي في كفة والحب في كفة ثانية لكن الميزان لم يُناصر الحب ولم يروزه.

جمال .. الحياةُ مُعترك واسع بين أضداد كثيرة تتسع لكل شيء، لكنها سُرعان ما تتحول إلى مستنقع للخلافات إن لم يتوحد فيه القلب والعقل على كلمة واحدة. لا يُمكن لنا أن نسير وراء نداء الحب فقط، الحبّ أحياناً وحده لا يكفي .. الحب وحده لا يبني أسرة ولا يعوّل عليه. لا يمكن أن نستمع لما يقوله قلبينا فقط، بينما الفجوة بين عقلينا في تزايد، علينا أن نستجيب لكل النداءات، وننصت لكل الأصوات.

- لكن سارة.....

- دعني أكمل جمال من فضلك..

أنا أحبك الآن كما أحببتك بالأمس وأكثر وسأبقى أحبك ما حييت. لكن شيئاً ما بداخلي قد كُسر، شيءٌ ما يرافق الحب أنا أفتقده الآن ، شيء يجعل من الحب وحده غير كاف لأن نستمر معاً، لأنه بينما الحب ينمو ويكبر وأجسادنا تقترب، أحس كأن أرواحنا تشيخ وتتنافر. جمال أنا الآن أقتات على قليل من الشغف الذي لدي، أحبو للوصول فليس لدي قوة للعدْو ولا المسير. لكني أرغب أن أتحدث إليك وأتحاور معك في أقاصي الكون بعيداً عن المكان، متجردة من أي شعور ومن أية لغة مسبقة،

تاركة ورائي ما أنتمي إليه في إنساني القديم، ولكن هذا أمٌ لا أستطيعه الآن، ليس لأنني لا أريد ..

جمال أنا الآن لا أملك من الأشياء إلا أنصافها، كما قال أحد المفكرون. نصف إنسان، نصف قلب يغذي جسدي بالحياة والنصف الآخر متآكل صَدِئ. نصف حياة ونصف دين ونصف مستقبل، نصف حلم. جمال أنا الآن نصفٌ في كلّ شيء، والنصف عجز. أنا الآن قلقة، مُضطربة، ونوبات الإغماء التي تُصيبني في ازدياد.

- سارة تستطيعن العلاج هنا، أنا وعمتي نعرف ذلك، نستطيع التكهن بما تعانينه. ستشفين ثم نبدأ من الصفر، حيث كنا أطفالاً نلعب بين البساتين، نبدأ من حيث كان الحب بذرة، نسقيه من أرواحنا، نغذيه أملاً. نُولد من جديد ، حيث الفجر المُشرق ونجعل كلّ ما مضى مخاضاً لنخرج لتوّنا من رحم الحياة إلى الحياة نفسها.
- لا نستطيع جمال .. لا نستطيع.
- بل نستطيع، من حق نفسكِ عليكِ أن تُعطيها فرصة أخرى. فرصة أخيرة نتمشى فيها على مهل في طريق الحب، نُضرم له ناراً وقودها جسدينا وروحينا، نجعل من أفكارنا المتضاربة مطبات، مطبات فقط للإبطاء ثم معاودة السير من جديد.
- أنا عاجزة جمال صدقني، الأمر ليس بهذه السهولة.
- حتى لو قلت لك أني لن أحيا من دونك.
- ستحيا جمال ستحيا، حياتك هي أنا ووجودي، ستحيا من أجلي، أنا التي لا تستطيع الحياة من دونك، لكن دون أن نستمر معا. يكفي أن أتمنى

لك السعادة في حياة أخرى أنت تختارها وقلبي عامر بالود لك ومن أجلك. حياة، تكون بداياتها أنت فقط لا ماض فيها ولا ذكرى مؤلمة.

تنهد جمال ..زفر من فمه بقوة، ثم مسح حبات العرق التي بدأت تتساقط من جبينه. سمعت سارة طقطقة أصابعه ونشيج صدره. كان القلق قد بدا واضحاً على وجهه...

- وماذا عن عقد الزواج الذي يجمعنا.
- لك حرية الاختيار فيه جمال، إن شئت أبقيته، لأنه زواج غير أمريكي ولن يمنعك من الارتباط ثانية، وإن شئت أوكلت الأمر لمحام ليباشر في انهائه. في كلتا الحالتين أنا أعفيك من أي التزام تجاهي، يكفيني أن نفترق في صفاء هذه المرة يكفي أن ننهي ما بيننا وقلبينا يخفقان حباً وسلاماً لا حباً و نزاعاً.

أدار الصمت ما تبقى من دقائق بينهما، كانت عيناهما تحدقان في البحر الواسع، ثم نهض جمال من مكانه مضطرباً :

- سارة هل أوصلك المنزل؟
- لا، شكرا جمال سأبقى هنا بعضاً من الوقت فقد أحببت المكان، سأعود إلى المنزل عندما أشعر أني بحاجة إلى ذلك.
- هل أهاتف أحمد، يوصلك متى شئت.

- حقا أنا شاكرة لك، سأعود وحدي. أعرف الطريق جيدا، هل نسيت فقد صرت من سكان بوسطن. قالتها سارة بنبرة امتزجت فيها السخرية بالدعابة... سأتمشى معك حتى الشارع الرئيسي.

أكملا طريقهما في صمت، وعندما اقتربا من الشارع العام قال جمال:

- حسنا، إذن سأودعك الآن... تنهد بقوة ثم أردف قائلا:

هل تعلمين سارة أن هذه هي المرة الأولى منذ زمن التي نفترق فيها بوداع، حدث وأن افترقنا عبر ثلاثة سنوات والحقيقة كان فراق أشبه بالهروب من الواقع أو الهروب من الوطن أو ربما من الحب. لكن هذه المرة الأمر مختلف تماماً. اليوم نحن نقف فوق أرض واحدة وتحت سماء واحدة، وكلانا تائه في نفسه يبحث عنها. كنت أود أن أجد لنفسي ملاذاً بقربك كما كنت أفعل دائما، لكني فوجئت بأرواحنا تتطاير، يأخذها الشغف لشيء تجهله، وجدت نفسينا تتوقان لفهم جملة من مشاعر عشناها مبهمة، غامضة، وجدتهما تضيعان في أعماق وحلة تفتش عن ضالة لا تعرف اسمها ولا تعرف لها أثر يوصلنا إليها.

أتعلمين سارة ؟.. الآن فقط عرفت أن ما كان يجمعنا لم يكن في جملته الحب فقط، إنما هو التيه. نعم سارة .. التيه. لا تتفاجئي، أنا تائه الآن وتائه منذ زمن وأعلم ذلك جيدا ولا أنكره، لكنك كنت دائماً طريقي إلى ذاتي، عزائي، ملجأي، المكان الوحيد الذي أجد فيه نفسي. لكن ليس بعد الآن وأنت تضعين الحواجز والعراقيل. لكني أود إخبارك شيئاً مهماً. أنت أيضا تائهة ولكنك ستكتشفين ذلك متأخراً وآمل ألا يكون متأخراً جداً.

- ما الذي تقوله جمال؟ ربما أعاني اليوم تيها حقيقاً أكثر من أي وقت مضى، لكنه بسبب الغربة لا أكثر وليس إلى الحد الذي تتحدث عنه.

- أنت واهمة سارة، قبل قليل كنت تتحدثين عن أنصاف الأشياء التي تحيينها أليس ذلك تيها سارة ؟.. أجيبيني؟ أنت تائهة، تبحثين عن نفسك منذ سنوات تبحثين عنها في الوطن، في الأرض، في الرسم وفي الكتابة. ربما تبحثين عنها بجانبي لكني أؤكد لك أنه أنا من كشف لك ذلك التيه وأزاح ستاره منذ ذلك اليوم الخريفي، تذكرينه سارة أليس كذلك؟

- يكفي جمال أرجوك لا تكمل.

- بل سأكمل ..

كفي حبيبتي عن التقوقع حول نفسك، إن كنت لا ترغبين في الإنصات لنداء الحب، شأنك، لكن عليك حتماً أن تنصتي لصوت الحياة. تنفسي- اصرخي أطلقي لروحك العنان، دعيها تخرج من هذا الجسد المنهك. حرريها من قيودك. الجسد قيد، والأرض قيد ..كلّ فكرة تستحو ذ عليك قيد. دعي روحك تحلق عالياً خلف شغفها مهما صغر، لا تدعيها رهينة لزمان مضى. افتحي باب التغيير، لا يليق بقلبكِ المرهف وعقلك الناضج هذا السجن، هيا تنفسي سارة ..

تنفسي كما سأفعل. لا يعني أن تتركي وطنك أنك خائنة، الوطنية الحق أن تقدمي لوطنك ما يجب عليك تقديمه وأنت في أي مكان. الحب هو العطاء دون حدود الزمان والمكان. سارة، تحرري مني وسأتحرر منك. إن كان الحب قيدنا فلنكسره. شقّي طريقك نحو الله، نحو الحب نحو الإنسان نحو النور أو الظلام، المهم في النهاية أن

تجدي طريقكِ إلى السلام الروحي، أن يكون لديك ما تقررينه وأن تملكي الحرية لفعل ذلك. عديني سارة أن تفعلي وأعدك أن أفعل، لأرحل مطمئنا عليك .

- أعدك جمال .. أعدك أن أحاول.
- حسناً إذن، الآن فقط سأرحل بسلام. هذا العالم الذي يبدو لي أنه لا لقاء بيننا فيه أبداً. طريقانا كخطين مستقيمين متوازيين لقائهما مستحيل. سأرحل عن عالمك إلى عالم يُشبع أرواحنا، عالم نجد فيه انتماءَ حقيقياً لذواتناً، انتماءَ حقيقاً لأشياء نحبها، وانتماءَ أوسع لإنسانيتنا أينما حطت أقدامنا هنا في أمريكا أو في أي بلد آخر.

وبحركة خاطفة أمسك يدها وشد عليها بقوة وبيده الأخرى أسبل على رأسها ووجهها ثم قبلها بين عينها وانصرف دون أن يلتفت.

ظلت سارة واقفة لا تدري ما عليها فعله، واجمة لا تحرّك ساكناً ولا يرمش لها جفن. كان موج البحر من خلفها عنيفا، والشوارع من أمامها تضجّ بالسيارات. تحركت ريح غاضبة فجأة وفي لمح البصر امتلأت السماء بالغيوم. كان جمال يمشي مهرولاً نحو سيارته المصطفة على يمين الجهة المقابلة. الوقت منتصف الظهيرة لكن الغيوم التي جاءت لحجب الشمس قد جعلت منه أشبه بالغروب. عبر جمال الجهة الأولى من الشارع ووقف ينتظر إغلاق الإشارة الضوئية ليعبر. تحولت الإشارة إلى الأحمر فتوقف سيل السيارات الهادر وتحرك جمال متقدما نحو سيارته، وقبل أن يقترب منها ببضع مترات اندفعت سيارة متجاوزة القوانين والإشارة الضوئية يقودها ثمل، في رمشة جفن انتبهت سارة ورفعت يدها وصرخت: " جمال احذر".

وعندما همَّ جمال بالاتفات، اصطدم جسده بمقدمة السيارة فطار عالياً ثم ارتطم بالأرض وتكسرت جمجمته إلى فتات.

صرخت سارة وهي تركض متجاوزة سيل السيارات المتدفق، عبرت في أقل من نصف دقيقة، وعندما وصلت كانت عينا جمال شاخصتين مخيفتين ملطختين بالدم. صرخت بشدة، وجثت عند رأسه المتهشم. رفعته نحو حجرها ثم رفعت رأسها إلى السماء وصرخت: "لماذا يا إلهي، لماذا سلبت مني روحي؟".

أخذت سارة تصرخ وتهذي بكلام لا يُفهم.

تشهق وتبكي ثم أسبلت عيني جمال وهي تمسح ما علق بوجهه من دم وتراب ثم رمت برأسها فوق صدره وغابت عن الوعي. بعد دقيقة أفاقت، كان شاب وزوجته قد عبرا نحوهما لمّا رأيا الحادث. همّا بأن يساعداها. نظرت إليهما بعينين شاردتين، أمسكا بيديها وحاولا جذبها للنهوض من الأرض. حدّقت بهما مجدداً، خاطباها بالأمريكية أنها ستكون بخير، صرخت بهما وهي تقول: "جمال مات أعيدوا إلي جمال". ثم عادت تهذي من جديد، تشد بقميص الرجل تارةً وقميص زوجته تارةً أخرى وهي تنتحب وتصرخ:

"قال لي .. قال لي إن تركته سيموت ولم أصدقه .. قلت له ستحيا..

كذبت عليه وعلى نفسي .. ماذا لو بقينا معا ؟

ماذا لو وقف القدر إلى جانبي مرة؟ "

ظلت سارة تصرخ، حتى أغشي عليها ثانية. عندما أفاقت كان رجال الإسعاف قد وضعوا الجثة داخل السيارة. ووجدت نفسها داخل السرير المتحرك، عادت تصرخ مفزوعة:

" انتظروا .. انتظروا أين تحسبون أنفسكم آخذينه؟

جمال سيعيش .. سيحيا .. سنتزوج وننجب أطفالاً

سنركض وراء شغفنا معاً .. سنعثر على ما ضاع منا وسنطرد التيه عنا.

اتركوه .. سيفيق من تلقاء نفسه اتركوه ..أرجوكـ .."

وغابت عن الوعي.

بعد أسبوع من الحادث جلست سارة وحيدة في حديقة كاسل ايلاند تكتب تحت عنوان:

سيمفونية الموت.

" انطفأ العالم في عيني، كأنّ النور الذي كان يملأهما قد رحل إلى أجل بعيد. كان قد جثا أمامي وعيون البحر ترقبنا ليمنحني قلبه، فأبيت إلا أن أجعل من عقلي حكما وعندما نطق بكلمة الفصل "الحرية لقلبينا" كان الموت سيداً للموقف.

رحل جمال "قلبي" في يوم خريفي متلون من أيام تشرين الخائنة، صرخت به على الناصية الأخرى: احذر. لكن الموت قد سبق الحذر كما سبق السيف العدل، وكانت أوامر الله قد نفذت إلى ملك الموت وانتهى الأمر.

رأيت جسده يطير ثم يهوي إلى الأرض. كبّرت وناديت إلهي الرحيم أن يلطف به لكنه تجاهل ندائي، وجّهت وجهي إليه .. "لماذا والعدل والرحمة من أسمائك؟"

حينها لا أذكر أني شعرت بوجوده كما لو كان غير موجود فعلا.

فارقت الحياة لدقيقة أو أكثر لا أعلم تماما، تراءت لي خلالها أطياف وأشباح، رأيت والدتي ووالدي وعمي أبو جمال يدعونني لأتقدم نحوهم وأنا جالسة وحدي وخائفة

وراء ظل داكن. أفقت فوجدت أبي يتلو (يس والقران الحكيم) بصوت متهدج اقشعر له بدني. حاولت أن أفعل مثله لكني لم أستطع. كنت أشتعل كجذع شجرة يابسة أُلقيَت في موقد. عدت أصرخ: "أن يا إلهي الرحيم تلطّف، لا تسلب مني قلبي، لا تأخذ مني هوائي، لا تفعلها وتفجعني." فقدت إيماني في قدر واعترضت على قضاء وادع الحياة في لحظة استرداده لوديعته وندمت.

غبت ثانية عن الحياة، في الحقيقة كنت أغيب وأحضر، وفي كلّ مرة أعود فأجد أبي لا يزال يرتل فرددت معه الآيات لكن دون لذة ودون أمل. لأن الإيمان لا يُفتعل في المصائب، بل لا يُعرف حجم الإيمان الحق إلا في المصائب. وإيماني عبر اثنتين وعشرين سنه كان وهماً ..كان مفتعلاً.

وضعت رأس جمال في حجري وأخذت أمسح ما علق بوجهه الطاهر من أتربة ودم، تعطرتُ برائحة دمه وخضّبتُ يديّ ووجهي كما تفعل عروسا مهووسة في ليلة حنائها. بقيتُ أتأرجح بين موتٍ ويقظة. أذكر آخر شيء فعلته في موقع الحادثة أني انهلت على وجه جمال أقبّله وألثم شفتيه ووجنتيه، ثم استيقظت فوجدت نفسي على سرير أبيض، فعرفت أنهم حملوني معه في سيارة الإسعاف، تفقدت نفسي، رأسي .. يديّ .. قدميّ. وجدت هاتفي لا يزال متشبثاً بجيبي، هاتفت أحمد، فلم يخرج صوتي، حاولت أن أوصل له بعض الكلمات لكن صوتي خانني. أُصيب بالذعر أحسست بذلك من خوفه وفزعه. أنهيت الاتصال وأرسلت له رسالة عبر الواتس أب: " أصيب جمال أنا في مستشفى بوسطن".

وصل أحمد وعمتي صفاء بعد أكثر من ساعة، بسبب زحام الظهيرة في "بوسطن". الطرق كلها مختنقة. كنت أجلس على أحد المقاعد أمام غرف المرضى الذين لا أعرف إن

كان جمال في إحداهن أم لا عندما ظهرت عمتي قادمة تهرول من آخر الممر الذي يجمع الغرف.

" سارة .. سارة ماذا حصل؟ أخبريني ما الأمر".

أخذت عمتي تهز كتفي وفي كلّ مرة كان الدمع يتدفق فوق خديّ حارقاً. كلما حاولت النطق أحسست بلساني قد ابتُلع مع لعابي. جثوت على ركبتيّ بينما هرع أحمد يستطلع الخبر، أخبرته إحدى الممرضات أنني أتيت برفقة شخص متوفى دهساً في نفس سيارة الإسعاف. عندما سمعت عمتي صرخت ولطمت وجهها كما يفعلن نساء قريتي، حضنها أحمد وقبلها وهو يردد إنا لله وإنا إليه راجعون. البقاء لله خالتي كلّ شيء هالك إلا وجهه. أجلس أحمد عمتي على إحدى المقاعد ثم ساعدني في الجلوس على مقعدي.

بعد قليل جاء الطبيب ببشرته السوداء وعينيه الداكنيتن وتحدث إلى أحمد ما مفاده أنه يتوجب التعرف على المتوفى لإتمام الإجراءات.

بصعوبة وقفت عمتي، كانت مُنهارة تماماً. شعرت أنها في عشر دقائق قد كبرت عشر سنوات. كانت تمشي تتعكز وتلف يدها حول رقبة أحمد بينما يحيطها الآخر بيده حول خصرها، شعرت أنها أصيبت بأمراض العالم كله لتوها. كانت حزينة جداً وكنت حزينة أيضاً وأتألم، تذكرت حديث رسول الله عن الحزن. الحزن الذي يخص النساء أكثر من غيرهن. ركبنا المصعد ترافقنا ممرضة وطبيب لا أذكر إلى أي طابق نزلنا لكني متأكدة أننا نزلنا. فلا يمكن أن نصعد لنرى الموتى إلا إذا فارقنا الحياة. نصعد نلتقي بالأرواح وننزل لنجتمع بالجثث. مشينا عبر ممر معتم يتقدمنا الطبيب يتبعه أحمد وعمتي، بينما تحاول الممرضة مساعدتي في المشي. عند التقاطع انحرف الطبيب يمينا

ففعلنا مثله، وعبر ممر أقصر تابعنا سيرنا لكننا لم نكمله وعند إحدى الغرف توقف الطبيب. دخلنا متتابعين إلى قاعة مطلية باللون الأبيض انتبهت أنها لا تحوي غير سرير واحد متحرك، فيها أربعة نوافذ تتطلّ على حديقة منجلة خضراء، في منتصف القاعة جهة الشمال مكتب ومقعد متحرك. وعلى يمين الباب بعشرة خطوات ثلاجات كبيرة مقسمة إلى مربعات وكل مربع داخله خزانة ذات عجل وتحوي داخلها جثة. سحب الطبيب الخزانة العلوية وأشار برأسه، فهمنا أن علينا التقدم. تقدم أحمد أولا وألقى بنظرة عجلة ثم أعاد غطاء الوجه مرددا "لا حول ولا قوة إلا بالله." حاول ثني عمتي عن رُؤية الجثة لكنها أصرت، تقدمت وهي ترتجف، فزعتْ لرؤيته وصرختْ، أحاط أحمد عنقها بذراعه وقرب رأسه من رأسها بينما وضع يده الأخرى أمام فمها. أشارت برأسها وعينيها وهي تئن، فتركها أحمد.

جاء دوري فتقدمت وأنا أنتفض. كان واقعي يشبه الكابوس، وكنت كمن أفاق لتوِّه منه. كنت كطائرٍ جريحٍ لحظة تسليمه لروحه، ضربت كفاً بكف، ثم وضعت كفي الأيمن على فمي فأطبقته وخرجت وانا أبكي.

أحياناً يكون علينا أن نسلّم أنفسنا للحزن وكأنه صاحب الصك الأوحد لأرواحنا. مهما ارتحلنا بعيداً عنه وطافت بنا الأيام فلابد أن نعود.

تولت الممرضة أمر عمتي التي أُغشي عليها. نقلتها إلى إحدى الغرف. ورافقني أحمد إلى غرفة الانتظار لا ينفك يواسيني ويشد من أزري.

رفض أحمد بقاءنا في المستشفى بعد أن استردت عمتي وعيها. قال أن علينا الذهاب فلدينا أمور مهمة يجب التحضير لها. عدنا ثلاثتنا إلى المنزل وقضينا سويا ليلة قاسية لم يغمض لنا فيها جفن ولم تسكن لنا فيها دمعة. أحمد الذي قام للوضوء أكثر من مرة لم

يترك القرآن إلا في لحظات الخلاء أو الرد على الرسائل. أما أنا فقضيت الليل أعبث بأصابع يدي مرة بفمي، ومرة بأصابع قدمي. كنت غاضبة من كلّ شيء، في لحظة أصبحتُ أملك أكبر قوة عدائية قد يمتلكها بشر ضد نفسي وضد العالم. فقدت إحساسي من فرط ما تألمت وبكيت، وبدأت أكوام القسوة تتكدس بصدري.

في الصباح كنا جاهزين لاستلام الجثة وإتمام الدفن. اعتنى أحمد بكل التفاصيل. أخبر أصدقاء العائلة وأصدقائه، حاول الاتصال بزوجة عمي أبو جمال من خلال هاتف جمال الذي سلمته الشرطة لعمتي صفاء لكنه لم يُفلح. كان هاتفها مُغلقاً على الدوام, اشترى الكفن و اتصل بالمُغسِّل وأبلغ إمام المسجد. وعند وصولنا المستشفى كان كلّ شيء جاهز.

أخرج جمال من ثلاجة الموتى فور وصول المُغسّل وجيء به إلى غرفة في الطابق السفلي من المستشفى. كان المكان بارداً، معتماً وموحشاً تفوح منه رائحة الموت. أدخل جمال عبر السرير المتحرك إلى غرفة بابها رمادي يفتح من كلا الجهتين. دخل الرجل الأفغاني ذو الشوارب الكثّة. دخل معه أحمد واثنان من أصدقائه بينما بقيت أنا وعمتي وثلاثة من صديقاتها خارجا.

ناديت أحمد من الخارج واستأذنته بالدخول، نظر إلى مرافقيه بحيرة لكن أحداً لم يتفوه بكلمة. رفض أحمد بداية بحجة أن ذلك لا يجوز فأجبته بأني زوجته على سنة الله ورسوله ويجوز لي ما لا يجوز لهم. وضع أحمد يده على إطار الباب:

وهمس في أذني: " سارة أنا أخاف عليك .. أرجوك اسمعي كلامي."

عادت ذاكرتي إلى ذلك اليوم الخريفي في مقهى الرسام عندما همس جمال في أذني "أنا أخاف عليك". سرت في جسدي رعدة. ارتجفت، وأنا أتوسل إليه أن يدخلني إلى حيث جثمان جمال ممدداً فرضخ أخيراً لرغبتي ودخلت.

كانت تفوح من المكان رائحة طيبة تفوقت على رائحة الموت، رغم وحشته.

مدد الأربعة جثة جمال على لوح خشبي وجلست أنا على مقعد في مقدمة الغرفة بجانب الباب. كنت في ذهول من كلّ شيء، لا أشعر إلا بالحرقة تأكل صدري وبالحرارة الخانقة التي يبعثها منظر الدم الذي كان لا يزال نازفا من جمجمته. وجه جمال كان أصفراً شاحباً، عيناه مسبلتان. كان يشبه الأطفال في نومهم. لوهلة شعرت بارتياح غريب، كان في وجه جمال نور يشع منه رغم شحوبه واصفراره. نور رأيته يوشك أن يتدفق من جبينه وتحت عينيه. تذكرت يوم وفاة عمي أبي جمال وتساءلت هل حقا تصحّ نبوءة سيدات قريتي بما يرينه من قسمات ترتسم على وجه المتوفى؟ وهل حقا جمال من أهل الجنة؟ إذن ماذا عن حياته العبثية ولهوه فيما يصح وما لا يصح.؟ كان الأفغاني قد قص ملابس جمال لصعوبة انتزاعها ووضع قطعة مستطيلة من القماش غطت عورته من سرته إلى أعلى ركبتيه. كنت أفكر به وبحياته كلّ الوقت وخلصت إلى أن أفعال العبد رهينة لنواياه. حينها تذكرت قول رسول الله الكريم:" إنما الأعمال بالنيات وإن لكل امرئٍ ما نوى". فعمل الإنسان مقرون بنيته قبل فعله. عدت أتساءل ما شأن نساء القرية إن كان المُتوفى من أهل الجنة أو من أهل النار؟ كيف لإنسان أن يحكم على إنسان مثله من بعض أفعال قام بها في حياته أو تركها أو لملامح وجهه عند قبض روحه؟.

جمال رغم ما فعل وما ترك كان صاحب رسالة، كان مخلصاً ومؤمناً لكن على طريقته، يحب الخير للجميع، طيب وبطيبته جمع قلوب الناس حوله.

كان الأفغاني قد بدأ بسكب الماء الدافئ على الجانب الأيمن من جسد جمال. هذه هي المرة الأولى التي أشهد بها تغسيل متوفى، كنت صغيرة عندما توفيَت أمي. وعندما توفي والدي تولى رجال القرية تغسيله والنساء لا شأن لهن بعمل الرجال. لكنّ الدين لم يأتِ على ذكر من يتوجب حضوره للغسل ومن لا يصح. لكن لماذا تُمنع المرأة من رؤية زوجها أو ولدها أو أخيها من حضور زفافه الأخير إلى بارئه؟

أكمل الأفغاني عمله بحرفية، أخبرني أحمد فيما بعد أن الأفغاني لا يتلقى أجراً إزاء ما يقوم به، فقد اتخذ من تغسيل الموتى حرفة له بجانب عمله في إحدى المقاهي لكن دون أجر. لذا أسميتها أنا حرفة من أجل الله، أو حرفة من أجل الذات أو ربما حرفة من أجل الآخرين. لكنه في النهاية عطاءٌ ذاتيّ لا صلة له بالزمان ولا المكان. فالأفغاني عرف طريقه إلى الله وبادر من أجل مرضاته عن طريق حرفته التي اتخذها. وأنا متى أعود إلى طريق الله فلقد ابتعدت وأخشى أن أضله أو أنساه؟.

ارتدى الأفغاني قفازاً، ثم قام مع أحد معاونيه برفع رأس جمال كأن يريد إجلاسه وبدأ بالضغط على بطنه، رأيت النجاسة تخرج من أسفله، فقام معاونه الآخر بصب الماء بكثافة بينما يحاول الأفغاني تنظيف ما كان يخرج . أحسست بدوار وبرغبة في التقيؤ. وضعت يدي على فمي وحاولت الوقوف فسقطت مغشيّاً عليّ. أخبرتني عمتي أني بقيت في المستشفى ثلاثة أيام بسبب الإغماءات المتكررة.

دُفن جمال"قلبي" في يوم تشريني غائم، اصطدم فيه الحب بالموت وكان النصر حليفاً للآخر. في المقبرة الإسلامية في "بوسطن" أُنزل جمال محمولاً على الأكتاف

داخل تابوت خشبي من سيارة الإسعاف. أخبرني أحمد أن عشرين رجلا فقط قد حضروا الدفن واصطفوا على الجانب الأيمن من الحفرة التي تم إعدادها مسبقاً، بينما وقفت النساء اللواتي لم يكن يزيد عددهن عن سبعة تحت أشجار السنديان المتحولة إلى اللون الأحمر. صلوا جميعا صلاة الجنازة، صلاة بأربع تكبيرات لا ركوع فيها ولا سجود، ثم سلموا عن اليمين وعن الشمال. نزل أحمد إلى الحفرة، تناول جسد حبيبي بمساعدة صديقه وأزجي في اللحد على جانبه الأيمن، فُكّت أربطته البيضاء ووضعت أحجار مسطحه فوق جسده الطاهر ثم أغلقت الفجوات بالاسمنت وطارت روحه عاليا. خرج أحمد من الحفرة وبدأ آخر بملئها بالتراب، وعندما انتهوا تبادلوا العزاء والدعاء لجمال بالرحمة."

كان في موت جمال ألمٌ لم تستطع سارة تحمله. في كل يوم ينقضي كانت تتساءل عن جدوى العيش إن لم يكن فيها ما تعيش من أجله، لكنّ تلك الحادثة التي ستروبها في ورقتها الأخيرة بعد خروج عمتها من غرفتها الجواب الكافي بتجربة حقيقة مع الموت تحت عنوان:

نحو تشرين آخر

" الحب يصنع الفوضى، لا أعلم إن كان الحب في قلبي قد نضب أم لا. لكنّي متأكدة أن الفوضى لا زالت تعيث في رأسي فساداً.

كان كلّ شيء على وشك الانتهاء، لكن لله القدير مشيئة لا حول لنا فيها ولا قوة. كنتُ أدون قبل قليل تحت عنوان" في بوسطن أتسول انتماء وهوية" عندما دخلت عمتي. وها هي قد خرجت لتوّها من غرفتي بعد أن حاولت معرفة ما حصل في الأمس. هي

إلى الآن لا تعلم أني كنت على وشك إنهاء حياتي لكن الله لم يرغب في لقائي عاصية، فأراد أن يمنحني فرصة أخرى قبل العودة إليه. الحقيقة لا أعلم لمَ أرسل الله إليّ قدره فانتشلني مما كنت مُقدمة عليه.

لم يكن بمقدوري ردع نفسي، فقد كنت غريبة عنها، أحسست أني شخص آخر لا أعرفه. ما كان يُذهلني حقاً هو قدرتي على اتخاذ قرار مصيري بشأن حياتي وأنا على تلك الحالة من التيه والضياع. أنا أعلم أن مثل ذلك القرار لا يمكن أن يكون وليد اللحظة، بل هو نتاج صراعات عنيفة داخل النفس بين الحياة والموت، بين القدرة والعجز، بين الإرادة وضعف الهمة.

كان قراري بالانتحار قرارا لحظياً، لمع في رأسي فجأة ولم أنتظر نضوجه.كنت حينها أمشي في شوارع بوسطن، لا أعلم إلى أين تقوداني قدماي وكانت رغبتي في التقاط أنفاسي تتضاءل شيئاً فشيئاً، وتتناقص معها رغبتي في البقاء.

لم أكن أفكر في شيء، فقد كنت هادئة حتى داهمتني فكرة الاستسلام بعنف. لم يكن بحوزتي آداة حادة أباغت بها شرايين يدي حتى تتدفق دمائي بيسر- فوق أرصفة "بوسطن" إلى آخر نقطة فأقضي- هناك. ولم يخطر لي أن أبتاع علبة "أدفل" من أي متجر مجاور فمسكنات الألم هنا والعديد من الأدوية تباع في المتاجر في ركن خاص. كنت أود إسلام الروح بهدوء، دون ألم أو عناء أو فوضى، هذا كلّ ما في الأمر.

الحقيقةُ كنت فارغة اليدين من أي نقود أو هاتف. فارغة من كلّ شيء إلا من حزني ومن فكرة رمت بردائها فوق جسدي من رأسي إلى قدمي، فلم أقوَ على التخلص منها، التصقت بفكري بقوة، فكانت الحجاب الذي غشى- عينيَ ومنعني من رؤية الحقيقة.

في "الداون تاون" كانت المدينة تعج بالحياة، التفتُّ يمينا نحو جسر هارفرد، الجسر الذي يحمل اسم جامعة عريقة في بوسطن. كنت قد سمعت عن حادثة انتحار أحد طلاب كلية الحقوق هناك، لمعت الفكرة في رأسي مثل فتيل مغموس في الزيت فاجأته شرارة من مكان بعيد. وفي اللحظة التي وقفت فيها عند أعلى نقطة في الجسر كانت الفكرة قد خرجت إلى طور التنفيذ وكنت وجهاً لوجهٍ مع الموت.

في الحقيقة لم يكن ثمة ما يعيقني، فقد اخترت القوة وتسلحت بالشجاعة وأقصيت مبادئي وعلمي وتعاليم ديني بعيداً عني. كان كلّ ما أحتاجه بعضاً من الاسترخاء لألقي بنفسي بهدوء وصمت.

في صباح البارحة طلبت مني الطبيبة الإجابة عن بعض الأسئلة بصدق، قالت لي أنه يجب عليّ ذلك لتستطيع مساعدتي، هززت رأسي بالقبول.

كانت أسئلتها عن مدى استمتاعي بالأشياء التي أمارسها، عن مدى شعوري بالرضا، وعن شعوري بالذنب أيضا، كيف أرى نفسي بالمرآة، كيف أشعر حيال نفسي، عن سرعة انفعالي، وهل يثير اهتمامي أحد الأشخاص، هل أتخذ قراراتي بسرعة، هل أجد صعوبة في النوم، عن شهيتي للطعام. وكان كلّ سؤال يحتمل عدة خيارات منها أحياناً أو دائماً، أو مطلقاً. كانت أغلب إجاباتي أحيانا ودائما. عندما انتهيت قالت لي الطبيبة أن عليّ الاعتناء بنفسي، لا شيء يستحق كلّ هذا العناء. قالت لي أنه عليّ مراجعة طبيبة أخرى في الصباح التالي، أعطتني بعض الأدوية التي لم أتناولها لمعرفتي التامة بماهيتها، شكرتها ثم ودعتها.

البارحة من على جسر هارفارد، رميت بنفسي لكنّي لم أسقط، وضعت أقدامي على الحافة الثانية للجسر ومددت ذراعي بشكل أفقي، ثم أغمضت عينيّ وحلقت

فوق نهر تشارلز. طرت بعيداً يُحيطني وجه أبي ووجه جمال، كانا كجناحين عبرت بهما بوسطن إلى مياه المحيط والقارات حتى وصلت وطني. حلقت فوقه، فوق قريتي، دخلت منزلي، وجدت أمي نائمة فوق الأريكة الزرقاء تحتضر بينما جلس أبي على مقعده الهزاز شارداً. دخلت غرفتي فوجدت أوراقي مبعثرة هنا وهناك، فوق مكتبي وسريري، وجدت ورقة كُتب عليها" أنا أخاف الفقد" وورقة أخرى كتب عليها "الحب هو إرادة عظمى" وأخرى" الفتيل الأخير للحب "....وجدت حقيبة مطاطية صغيرة، جمعت أوراقي فيها فتمددت وكبرت تلقائياً، عرفت أنه بإمكاني وضع فيها المزيد. حملتها وخرجت إلى الفناء الخارجي، رأيت أوراق تشرين مبعثرة، وحبات الزيتون متساقطة، رأيت الوجوه العابسة المتجهمة، ووجدت وجوهاً تحاول الابتسام رغماً عنها، جمعت بعضا من أوراق الأشجار وبعضا من الصور ووضعتها في حقيبتي المطاطية وحلقت مع وجه رفيقي حول الجبال ، نزلنا إلى الوادي اغتسلنا، دخلنا بيوتاً عامرة بالفرح، شبابها يضربون الأرض ويتمايلون، ودخلنا خيماً خيّم عليها الحزن، سمعنا القرآن وشهدنا الدعاء للموتى. رأينا نساء محجبات ورأينا أخريات سافرات. رأيت أشخاصاً كُتب على جباههم، أردني وآخر سوري وعراقي وفلسطيني وآخر داعشي- ومسيحي. عدت للتحليق من جديد دخلت جامعتي رأيت أساتذتي والبحيرة الخضراء، شعرتُ بالبرد يتسلل إلى معدتي ورأسي .. تقيأتُ وأفرغتُ ما في جوفي. بدأ المطر يهطل بغزارة، تبللت ملابسي، رأيت السيلَ يجرف الأحلام ويقتل الفرح. رأيت أناساً يهتفون باسم أوطانهم وعشائرهم. ورأيت أطفالاً جياعاً في المخيمات يتسولون العطف من أجل إنسانيتهم وطفولتهم المنتهكة. رأيت نساءَ يرتجفن من البرد وكهولاً أنهكهم الحزن، شعرت بالضيق، وعدت أدراجي عبر الصحراء ثم المحيط، حملت كلّ الصور التي مررت بها داخل حقيبتي المطاطية، أمي، أوراقي، الجبال والوادي بيوت العزاء

والفرح، وجوه دامعة ووجوه مبتسمة وأخرى دامية، وعدت أدراجي ووقفت ثانية على حافة الجسر. لكن حملي أصبح ثقيلاً، بدأ يجذبني إلى الأسفل نحو النهر، صاح والدي: "سارة .. سارة هيا ضعيني .. ضعيني يا ابنتي قبل أن يُباغتك الموت، ضعيني داخل الحقيبة يا ابنتي، تخلصي من الماضي". بدأت قدماي تهوي ببطء نحو النهر .. "هيا يا ابنتي هيا الوقت يمضي-". قبّلت وجه أبي، ضممته إلى صدري وقلت له: "وداعاً". صار حملي أثقل، وبقي وجه جمال يُحدِّق في عيني بتلك النظرة العابثة، قال لي هيا سارة حبيبتي كوني قوية فقد جاء دوري، صرختُ: "لا أريد أحداً سواك، لا قيمة لحياتي من دونك، لا أريد أن أبقى وحيدة، لم آتِ إلى هنا لأكون وحيدة، سأدَعُ نفسي- للتيار كي لا أبقى وحيدة، جمال أريد أن أكون معك في أي مكان، في الحياة في الموت، في بوسطن في القرية أريد أن أكون برفقتك ".

" سااارة، حبيبتي، أنا أخاف عليك هيا سيجرفك النهر، أنت على بعد خطوات من الماء، لا تنسِي أنك لا تُجيدين السباحة فلا تخاطري حبيبتي ..هيا سارة". صرختُ ثانية وثالثة، كانت الحقيبة المطاطية تنزلق من بين يدي وأنا أتشبث بها. صرخ جمال: " هيّا، هيّا سارة تخلصي من قيدك، ضعيني في كيس ذاكرتك وألقِ به إلى النهر.. تحرري سارة .. تحرري مني .. من والدك .. من وطنك .. من كلّ قيدٍ يُكبلك. فري إلى الله. الله هو المحبة والسلام ـ ستجدينه في قلبك، في أعماقك. فالحياة رغم بؤسها تستحق المحاولة، فلا تنسحبي الآن ولا يجدر بأحد أن يفعل. ألا تذكرين سارة تلك القصيدة التي قرأناها معا:

لا أندمٌ، لا أصرخٌ، لا أبكي،

كل شيءٍ زائلٌ، كدخانِ شجرات التفّاح البيضاء.

ها هو ذهب الذبول يغمرني

لن أعودَ شاباً من جديد.

والآن أيُّها القلب الذي لمسته البرودة،

لن تخفقَ كعادتك

والبلادُ المنسوجَةُ بأشجار البتولا،

ما عادت تغري بالنزهةِ حافياً.

يا روحَ المغامرة، ها أنتِ أضعفَ فأضعَف

تهزَّين لهبَ الشفاه.

لهفي عليكِ يا نضارتي المفقودة،

يا العيون العربيدة،

والعواطف الفيّاضة.

اليوم أزدادُ بُخلاً بالأماني،

أهذهِ أنتِ التي عبرتِ أيتها الحياة؟ أم أنني حلمتُ بك؟

لكأنني في الصباح الربيعيّ الباكر

لم أنطلق على صهوةِ جوادٍ وردي.

كلُّنا، كلّنا في هذا العالم إلى التفسّخ،

بصمتٍ ينسابُ نُحاس الأوراق من أشجار القيقب...

فكن إلى الأبد مُباركاً

لقد أُتيحَ لك أن تزهِر وأن تموت.

"سيرغي ينسن"

هذا سبب كاف للشعور بالرضا، فقد أتيح لنا أن نُزهر ولازلت تفعلين. وسينتهي الكابوس يوماً على كلّ حال، ستُكملين طريقك وستهنئين. أنا أثق بقدرتك على تجاوز كلّ الصعوبات، فلا تترددي. هيا حبيبتي، فلتلقني في النهر مع من ستلقي، تحرري سارة من الماضي، الماضي قاتل مباغت، هيا حبيبتي أنا سعيد بذلك صدقيني."

وفي اللحظة التي لامست فيها الحقيبة الماء أخذتُ بوجه جمال بين أصابعي، قبلته، ابتسم ابتسامة عريضة، قلت له وداعاً وأدخلته الحقيبة. وقبل أن يسحبني الثقل إلى أسفل، دفعتُ بالحقيبة في الماء وحلقت عالياً. وصلت الجسر، أنزلت قدماي ببطء فتحت عيني، كانت السماء قد تلونت بلون رمادي مُعلنة انتهاء الليل، شعرت بذاكرتي قد تلاشت وبجسدي قد أصبح خفيفا، ضممت يدي نحو صدري كان قلبي يخفق بقوة ويداي ترتجفان، ركضت، كان الجسر خالياً تماماً. أحسست بروحي تحظى بانعتاق أبدي، أحسست ولأول مرة بذلك السلام الروحي، فككت القيود وتحررت، تصالحت مع الحياة، ولم أكن راغبة بشيء أكثر مما هو متاح. أسرعت حتى لا يلحق بي الماضي. رأيت النهار يصعد، كنت أطفو بروحي عالياً، بينما جسدي يهرول مسرعاً. وفي اللحظة التي بزغ فيها أول شعاع للشمس وجدتُ سيارة أجرة تقف عند أول منعطف في الطريق، ركبت في عجل سألني السائق إلى أين؟ قلت هذه المرة دون تردد: نحو تشرين آخر.."

تم بحمد الله.

حقوق الطبع و النشر محفوظة

ببلومانيا
للنشر والتوزيع